حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

المنقذ من الضلال

راجعه
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

راجعه
الشيخ عبد القادر الأرناؤوط

حققه وقدم له
محمود بيجو

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

المنقذ من الضلال

حققه وقدم له

محمود بيجو

راجعه

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الشيخ عبد القادر الأرناؤوط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيدنا محمد ابن عبد الله الذي بعثه للبشرية هادياً ونذيراً ، وداعياً إلى الخير ، أنقذ به الإنسانية من ظلمات الجهل إلى نور العلم ،

أما بعد :

فإني لما أيقنت في نفسي أن هذا الكتاب (المنقذ من الضلال) أنفع الكتب وأجلّها إن فهم حق الفهم ، وأدرك حق الإدراك اهتممت به ، وشرعت في العمل فيه ، وإخراجه للناس في طبعة جديدة ، وقدَّمت له بمقدمة بينت فيها العلاقة الوثيقة بين « المنقذ من الضلال » و « المنهج » لديكارت ، ثم دعمت آرائي بالوثائق وأرقام المخطوطات التي كانت موجودة عند ديكارت ، وما كان موجوداً عند أصدقائه المقربين ، والتي مازالت موجودة في مكتبات أوربا إلى يومنا هذا .

ومنذ ذلك الوقت واصلت البحث راغباً في الوصول إلى قرار في هذا الأمر ، أعني الصلة بين الغزالي وديكارت ، ولقد توصلت إلى حقائق لا يمكن أن يرتاب فيها إلا المنهزمون نفسياً أمام ضغط الغزو الفكري ، والشعور بالنقص تجاه هؤلاء الأقزام الذين غلا قومنا غلواً شنيعاً في تمجيدهم ، والإشادة بذكرهم والاستخذاء لهم ، ويجعلون قولهم فوق كل قول ، وكلمتهم عالية على كل

كلمة ، وأنهم ظنوا أن ديكارت هذا قد اهتدى إلى ما لم يهتد إليه أحد من أساطين علماء الإسلام وباحثيه ، ولقد جهلوا أن المستشرقين هم طلائع المبشرين الذين أغاروا على العالم الإسلامي ، ووقع تحت يدهم آلاف مؤلفة من المخطوطات النفيسة والمنتقاة ، ووزعت في جميع أرجاء أوربة وأديرتها ومكتباتها وجامعاتها ، وقد تمت عملية إخصاب الفكر الأوربي وهو بسبيل يقظته ، وتلمس طريقه ، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين :

الأولى : إسبانيا وفي مدينة طليطلة منها بخاصة .

والثانية : صقلية ، وجنوب إيطاليا في عهد النورمان وأشهرهم « رجال الثاني » المتوفى سنة ١١٥٧ م و « فريدريك الثاني » المتوفى سنة ١٢٥٠ م .

فقد كانت هاتان المنطقتان نقطتي التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة ، وبين العقل الأوربي الناشيء لأنهما على الحدود بين دار الإسلام وبين أوربا .

يبدأ هذا التبادل برحلة « جر بيردي أورياك » الذي أصبح فيما بعد بابا باسم « البابا سلفستر الثاني » ومن الثابت أنه زار إسبانيا وأمضى بها ثلاث سنوات من سنة (٩٦٧ ـ ٩٧٠ م) بجوار أسقف (فتش) فكان لهذه الرحلة أثرها البالغ في اهتمام « جربير » بالعلم العربي ومحاولة نشره في أوربا المسيحية ، وبلغت طليطلة مكانة كبرى على أيدي ملوكها « بني ذي النون » ونقل إليها آلاف المجلدات من المشرق ، وشجع على قيام حركة نقل الكتب العربية إلى اللاتينية إما بتوسط اللغة العبرية ، أو اللغة الدارجة الرومانية ، وعلى رأس هؤلاء مطران طليطلة « ريمندو » (١١٢٦ ـ ١١٥٢ م) وتلاه خلفاؤه من المطارنة حتى استمرت هذه الحركة طوال أكثر من قرن ، وقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، وأول ما اهتم به الأوربيون هو العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية ، وبقيت الدراسة

في أوربا تافهة كل التفاهة ، محصورة في فئة من الرهبان ، وكان على رأسهم الشماس « دومنجو غنصالبه » المتوفى سنة (١١٨٠ م) وبرز نشاطه ما بين (١١٣٠ - ١١٧٠ م) ويعد من أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الإسبانية العامية ، فقد كانت الطريقة في الترجمة أن يقوم يهودي مستعرب بترجمة النص العربي شفوياً إلى اللغة الإسبانية العامية ، ثم يتولى « غنصالبه » الترجمة إلى اللاتينية وبين ما ترجمه « غنصالبه » على هذا النحو بعض مؤلفات الفارابي ، وابن سينا والغزالي .

أما المركز الثاني للتبادل الثقافي فكان كما قلنا في « صقلية » بعد أن استولى النورمان عليها سنة (٤٨٤ هـ) وكان العرب قد فتحوها سنة (٢٧٢ هـ) فبدأت فيها حركة مناظرة لحركة طليطلة وإن تأخرت عنها بعشرات السنين ، كما اشترك في حركة الترجمة من العربية مترجم إيطالي فذ هو « جيراردو اللريموني » سنة (١١١٤ - ١١٧٨ م) الذي رحل إلى طليطلة طمعاً في دراسة العلوم الفلكية .

واستمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر وأمَّ طليطلة علماء أوربا الكبار مثل « ميخائيل أسكوت » الذي شارك أيضاً في حركة الترجمة ، فترجم لابن سينا ، ومن بين كبار المترجمين نذكر « ماركوس » شماس طليطلة الذي ترجم من العربية بعض مؤلفات « جالينوس » الطبية كما ترجم القرآن الكريم ، وبعض الكتب في علم التوحيد كما نذكر « هرمانوس المانوس » الذي ترجم « ابن رشد » على الأخلاق « لأرسطو » سنة (١٢٤٠ م) وتلخيص الخطابة « لابن رشد » وفي عهد « الفونسو الحكيم » انتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الإسبانية الناشئة ، وكان لهذا أثره العظيم ليس فقط في تقدم الدراسات العلمية في إسبانيا ، ومنها إلى أوربا كلها ، وخصوصاً في قيام اللغة الإسبانية .

ومن هذا كله يتبين مدى حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والإسبانية ، مما سيكون له أخطر الأثر في بعث العلم والأدب في أوربا »[1] .

فأوربة كانت ساقطة في حمأة العصور الوسطى المظلمة ، كانوا في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، لا دين يجمعهم ، حتى جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي (١٦٠٠ م) ، وبتأثير من نقل المخطوطات وترجمتها إلى اللاتينية عن طريق إسبانيا وصقلية ، وعن طريق الرهبان وتلامذتهم ، وظهر رجال يطلبون العلم والمعرفة من أمثال « روجر بيكون » الانجليزي ، (١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م / ٦١١ ـ ٦٩٣ هـ) ، ممن تعلموا العربية ، وجاهدوا في التعلم جهاد المستميت بصبر ودأب ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائل الجهل ، وكان منهم ذلك الرجل الذكي « توما الإكويني » الإيطالي ، (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م/ ٦٢٢ ـ ٦٧٣ هـ) استطاع هذا الرجل أن يحصِّل قدراً كبيراً من المعرفة والعلم ، وكان متكئاً اتكاءً كاملاً على القدر الذي استطاع أن يفهمه ويظفر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومتكلميه كابن رشد وابن سينا والغزالي وغيرهم ، ولكن كان العائق عن أن تؤتي هذه النهضة ثمارها يومئذ أن لغة الرهبان ثم العلماء كانت هي اللاتينية القديمة ، وكانت أوربا كلها تتكلم لغات كثيرة مختلفة ، ولهجات شديدة التباين ولكنها لغات قلقة في دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأصبح الرهبان والعلماء يسيرون في طريق ، ورعايا الرهبان في طريق آخر ، فهم قطيع ينعق فيه ناعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون[2] .

كان كل مدد اليقظة ، مستجلباً من علوم المسلمين ، وكان السبيل إلى

(١) انظر دور العرب في تكوين الفكر الأوربي للدكتور عبد الرحمن بدوي .
(٢) انظر « المتنبي » للأستاذ محمود محمد شاكر . (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) .

ذلك معرفة لسان العرب ، ولقد كان للسان العرب السيادة المطلقة على العالم ، وكان هذا اللسان معروفاً معرفة جيدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية ، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس ، وكان لا بد لهم من أن يزداد عدد الذي يعرفون اللسان العربي ويجيدونه زيادة وافرة ، لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحي في علماء الإسلام ، لكي يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية .

وقد ظهر منهم رجل استطاع أن يضع لهم منهجاً فكرياً وهو « ديكارت » الفرنسي (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) فمن خلال دراستي لكتاب « المنقذ من الضلال » استطعت أن أصل إلى أن الرجل استطاع أن يحصِّل ما حصَّل إنما باعتماده على الغزالي الذي سبقه بخمسة قرون ، وأريد أن أقف بالقارىء في هذه المرحلة من مراحل « منهج الغزالي الفكري » ، وأقارن بينه بين « منهج ديكارت » فإننا خلال دراستنا لكتاب « المنقذ » نصل إلى أنه ليس من الممكن أن نجد في أي مؤلف أوربي إيضاحاً لمذهب التشكك الذي يقول به الفلاسفة ، له وضوح هذا الذي قاله الغزالي .

ولنسمعه وهو يتحدث عن نفسه ، وهو يقص قصة جهاده في انتزاع نفسه من الآراء التي رضعها طفلاً ، يقول الغزالي : « قلت لنفسي : إن ما أسعى إليه هو معرفة حقائق الأشياء ، وإذن فالضروري لي هو أن أتبين معنى المعرفة . وكان واضحاً جلياً عندي أنه لا بد من وجود نوع من المعرفة للأمر المطلوب التعرف عليه يجلو عنه كل شك ، بحيث يصبح وقوع الخطأ أو توهم الخطأ فيه أمراً مستحيلاً . وليس يغني فيما تحققت لي معرفته أن يكون في غير حاجة إلى جهد لإقناع غيري به ، ولكن يجب أن يتوفر له من السلامة ما يحميه من قيام احتمال الخطأ فيه ، فهذا الشرط وثيق الاتصال بمعرفته ، حتى لو قام برهان

ظاهري على بطلانه ، إذ أن هذا البرهان الظاهري يسقط تلقائياً لعدم قيام شبهة حول ما أعرفه تسمح بظن وقوع الخطأ فيه ، مثال ذلك أني إذا عرفت أن العشرة أكثر من الثلاثة فإني إذا قال لي قائل : بل هو العكس فالثلاثة أكثر من العشرة ، ثم أقام البرهان على صدق دعواه من زعمه أنه قادر على أن يحوِّل عصاه إلى حيَّة ، ثم صنع ذلك فعلاً ، فإن اقتناعي بخطئه لا يتذبذب . قد أعجب بسعة حيلته ومهارته ولكني لا أشك في سلامة معرفتي » .

« وقد أصبحت مقتنعاً بأن العلم الذي لا يحصل لي على هذه الحالة من التمام ، ولا يتهيأ لي معه هذا اليقين ، لا يمكن الاطمئنان إليه ولا التأكد منه ، والعلم الذي لا يقين معه لا يجدر به أن يدعى علماً » .

« وأخذت أراجع حالة علمي على ضوء هذا المنهج فوجدته مجرداً من كل هذه الشرائط ، فليس هو إذن جديراً باسم العلم ما لم يكن لبلوغ العلم وسيلة أخرى تبلغ إلى اليقين به غير هذه الوسيلة ، وقلت : لعلها تكون في تحقيق العلم عن طريق الحواس ، وعن طريق المبادىء المسلم بصحتها وظننت أن شهادتها لا مراء فيها ولا شك » .

« غير أني حينما أخذت في امتحان الأمور عن طريق الحواس ، وعن طريق التأمل لأرى إن كان من الممكن أن أصل بها إلى القطع ، وعن طريق التأمل لأرى إن كان من الممكن أن أصل بها إلى القطع وتبديد الشك ، تكاثرت علي الشكوك وتزاحمت حتى بددت كل يقيني . فقد رحت أسأل نفسي من أين تأتيني الثقة بالأمور الحسيَّة ؟ ولما كان أقوى حواسنا البصر ، فقد وجدت أنني أنظر إلى الظل فأراه ثابتاً لا يتنقل ، فأحكم عليه بالبراءة من الحركة ، غير أني لما رجعت إلى مكانه بعد ساعة وجدته مفارقاً مكانه ، فهو لا يختفي فجأة ، ولا يتحرك عاجلاً ، وإنما ينسحب شيئاً فشيئاً ، قليلاً قليلاً فلا يبقى ثابتاً أبداً ، وأنا إذا نظرت إلى النجوم بدت لي صغيرة كأنها الدراهم ولكن

البراهين الحسابية تقنعنا بأنها أكبر من الأرض . وهذه وأمثالها تصدر الأحكام عليها عن طريق الحواس لكن العقل يرفضها ويبطلها ، وهجرت الحواس بعد أن تزلزلت ثقتي بها » .

« ورحت أقول لنفسي : لعل اليقين لا ينال إلا بأحكام العقل ؛ أي من طريق المباديء الأولى : من قبيل أن العشرة أكثر من الثلاثة ، ثم ردَّت على الحواس قائلة : أي أمان لك في ثقتك بالعقل ، وهل هي إلا من قبيل الثقة بنا ؟ لقد اعتمدت علينا فتقدم العقل فكذبنا ، ولو لم يكن العقل موجوداً فلقد كان ممكناً أن تمضي علينا ، فما يؤمنك أن يكن في الوجود شيء سوى العقل ، يقوم منه مقامه منا فيكذب أحكامه بمثل ما كذب هو أحكامنا ؟ وعدم ظهور هذه القوة لنا ليس دليلاً على عدم وجودها » .

« وتلبثت طويلاً أجاهد عبثاً إيجاد رد لهذا الاعتراض ، وزادت متاعبي عندما فكرت في النوم ، فرحت أقول لنفسي : لقد ترى الأحلام فتراها في النوم حقيقة ، وتجدها متساوقة فلا تتطرق إليك شبهة تبطلها ، فإذا أنت استيقظت عرفت أنها لم تكن إلا أطيافاً وخيالات فما يدريك أن ما تراه هنا في يقظتك ليس إلا من قبيل الأحلام ؟ » .

« كل حالة حق في لحظتها ، ويبقى في الإمكان أن تعرض لك حالة ثالثة تكون منك بالقياس إلى ما تراه في يقظتك ، بمثل ما كانت حالتك في اليقظة بالقياس إلى حالتك في الحلم ، وحينئذ تكون يقظتك الحالية ليست إلا نوماً بالقياس إلى تلك الحالة العليا التي يمكن أن تكون »[1] .

ويعقب عليها دريبر بقوله :

« ليس من الممكن أن تجد في أي مؤلف أوروبي إيضاحاً لمذهب

---

(١) (تاريخ تكون أوربا الفكري ج ٢ ص ٤٩ لدريبر) .

« التشكك » الذي يقول به الفلاسفة ، له نصوع هذا الوجه الذي قدَّمه به هذا العربي ، وليس في الإمكان حقاً أن تقدم القضية بطريقة أفضل ، وقوَّة عارضة الرجل تبدى في مفارقته الفذة لغموض الكثرة من الكتّاب الميتافيزيقيين . وليس من مقصدي أن نقنع بهذا القسم من مسيرة العالم المسلم الفكرية ، وإنما أريد أن آخذ سبيل المقارنة بين « الطريقتين » على نحو التجزئة وسأقدم السيرة التي سارها « ديكارت » لأنتهي إلى رسم منهجه بمثل ما صنع دريبر في تقديم السيرة الفكرية التي سارها الغزالي ـ نقلاً عن الغزالي نفسه ـ لينتهي إلى منهجه العام وقد رآه دريبر دون شك ، وألمح إليه من الوحدة بين المسيرتين الفكريتين اللتين يفرق بين صاحبيهما خمسة قرون » .

وكما نقلت حديث الغزالي عن سيرته الذهنية عن عالم أوروبي كذلك لكي تتم المعادلة في التقديم .

يقول الأسقف جورو وأستاذ الفلسفة القديمة في كتابه « دراسات تحليلية للكتّاب الفلسفيين » عن ديكارت :

« ونظر ديكارت فوجد أنه قد بذل من الزمان الكثير في دراسة اللغات وفي قراءة الكتب القديمة : تواريخها وخرافاتها ، فالخرافات تحمل على تصور كثير من الوقائع غير الممكنة ممكنة الوقوع ، والتواريخ ، حتى أشدها أمانة ، تغفل أحط الظروف تألقاً ، وهي بهذه الحالة لا تكون تامة . وبدا له أن « البيان » والشعر طرح نفسي أكثر منهما ثمرات للدرس .

وكان يقدر الرياضيات ولكنه لم يكن يرى لها وجهاً حقيقياً للاستعمال ، ويوقر علوم الدين ، ولكنه كان يرى أنها غير ضرورية لتخليص النفس ، ثم أنه كان يعتقد أن الفلسفة لا تنطوي على أمر واحد كف الناس عن المجادلة فيه ، وأن العلوم التي تنهض على قاعدة من الفلسفة ليست بأثبت من الفلسفة .

وحملت هذه التأملات كلها ديكارت على أن يهجر دراسة الآداب ،

ليلتمس الحقيقة في ذاته ، أو يقرأها في كتاب الدنيا ، ولذا شغل نفسه الجزء الباقي من شبابه في الترحل ، غير أنه رأى في أخلاق الناس وعاداتهم ، وفي آراء الفلاسفة ، التناقضات الكثيرة فقر عزمه على أن يدرس نفسه ، وأفاده هذا الدرس أكبر الفائدة »[1] .

هذه الأزمة الفكرية التي وقع فيها ديكارت هي نفسها التي مر بها الغزالي وعرض الغزالي علمه على مقاييس التحقيق الممكنة لكي يصل فيه إلى الحقيقة ، وهو نفسه العرض الذي عرض فيه ديكارت على نفسه معارفه التي حصلها في سني دراسته ، وانتهاء الغزالي من هذا العرض لمعارفه إلى الشك في صوابها ، هو الذي انتهى إليه ديكارت في استعراضه علومه التي حصلها في المدرسة على نفسه وتأملاته .

ولكن نجد الفرق تماماً بينهما في ظاهرتين :

الأولى : أن الغزالي يشير إلى علمه جملة ، وإلى معارفه تعميماً ، وبها من الأنواع ما يقدمه عرض ديكارت للمعارف التي حصَّلها ديكارت في مدرسته لا مراء ، وعمل ديكارت في هذه النقطة لا يعدو أن يكون شرحاً بالأمثلة ، أما إيجاز الغزالي فيأتي اعتماداً على مستوى الصورة المحصَّلة للأستاذ في نفسه عن علمه وعند الناس .

والناحية الثانية : هي تفصيل الغزالي في بيان المقاييس التي عرض عليها علمه من الحواس ثم الإدراك ، ثم العقل ، وإيجاز التلميذ الجديد ، ذلك في وثبات متباعدة مبعثرة بين شعب موضوعه ، ولعل ذلك راجع إلى أنه لم يكن يريد أو يسيغ في مطلع حياته رفض الدنيا ، والالتجاء إلى دير يعيش فيه معيشة الزهاد بمثل ما انتهى إليه الغزالي .

---

(١) (انظر : ديكارت ، خطاب عن الطريقة ص ٧ — ٩) .

وهاتان الظاهرتان نفسهما هي المشير إلى أن ديكارت كان ينهل من منهل لم يهيأ له بعد بحكم تجربته الضيِّقة التي لا يمكن أن تظفر به إلى هذه التأملات التي إنما تقود إليها سعة التجربة في الحياة الطويلة ، « فديكارت » يصطنع الحيرة التي لم توجد في حياته بعد أسبابها ، ولا مهيئات النفس والعقل الوقوع فيها .

ونحن إذا نظرنا إلى دوافع الغزالي إلى الشك وجدنا أمراً جسيماً تتضاءل إلى جانبه هذه الدوافع التي يقول ديكارت أنها حيرته وحملته على ترك المدرسة في مرحلة الصبا ، وقبل الإجازة الأولى ، فقد تكاثرت الفرق الإسلامية المتناهضة على فكر الغزالي في عصره حتى كادت تضله ، وحتى وجد نفسه في شبه الشك فيها جميعاً ، فالتطابق في النظريتين قائم ، وبتفاصيله والمسار فيهما واحد ، والقول بتكلف ديكارت ادعاء الوقوع في هذه الحيرة المفضية إلى التشكك في حقائق الأشياء ، حكم له مبرراته ، والقول بأنه ينقل انطباعاته عن الغزالي قول لا تجني فيه .

ولنخطو بعد هذه الخطوة إلى غيرها ، يقول ديكارت : إنه وجد نفسه يبحث عن الحقيقة في نفسه ، وفي كتاب الوجود ، وإنه في هذا السبيل وجد أن الرحلة للتعرف على الحقيقة بين الناس في مختلف البلاد هي الوسيلة لتحقيق معرفته ، فنهض إليها ، وهذا تصوير لحياة الترحل التي عاشها الغزالي .

لقد كان ترحل الغزالي في سبيل العلم ، وتلك كانت ظروف تجاربه الواسعة المحصلة في عالم يترامى بين خراسان في أقصى الشرق من فارس حتى الغرب من مصر ، وكان يرجو أن يرتحل إلى المغرب الأقصى فيجمع بذلك بين أطراف العالم المتحضر في أيامه وإنما حال بينه وبين ذلك وفاة الأمير « يوسف بن تاشفين » رحمه الله تعالى ، فلم يتجاوز الإسكندرية .

فأين تقع رحلات ديكارت من رحلات الغزالي ؟ يقول مترجمه :

« ولد رينيه ديكارت في لاهاي من إقليم تورين ـ فرنسا وتلقى دروسه

في مدرسة لافليش وكان يقوم عليها الجزويت ، ومع أنها كانت مدرسة من أشهر المدارس الأوربية فإنه عندما بارحها في السادسة عشرة من عمره لم يكن راضي النفس عن دراسته . يقول : « لقد وجدت نفسي مثقلة بالشكوك والأخطاء حتى لقد رحت أظن أني لم أفد شيئاً من سعيي إلى التعليم إلا أني أزداد من يوم إلى يوم كشفاً لجهلي » هذه الصورة هي أقرب إلى متاعب الرجل ومشاغله التي إنما تنضجها السن . خرج هائماً على وجهه مدة إثني عشر عاماً متتابعة ، لا يهدأ له بال ، باحثاً ، كما نقول عن مهمته وعمله ، حيناً في الحياة بين الناس ، وحيناً في الترحل ، وحيناً في المعسكرات بين الجنود » ولعل مترجم المنقذ فهم من سيرة الغزالي عندما فارق نيسابور إلى نظام الملك فيقول : وخرج إلى العسكر ، فظن أنه دخل سلك الجيش فأقحم ديكارت في سلك الجيش ولم يفهم أن المنطقة التي لقي الغزالي فيها نظام الملك هي العسكر .

فقد كان ديكارت صبياً فاشلاً مافي ذلك شك ، فقد فارق المدرسة في السادسة عشرة من عمره ، وفارقها في هذه السن الباكرة لا علم له إلا النزر اليسير الذي يتاح جمعه للصبي في مثل سنه بدءاً من طفولته ، وفارقها غير مرضي عنه ، ولا راضياً ، يتخذ من موارد لا نعرفها ، وفي سن المراهقة المريضة طريقة إلى ممازجة الدنيا والناس ، ويقضي أيامه متنقلاً مسافراً ، لا في تحصيل علم مدرسي لأنه كان ساخطاً على هذا العلم المدرسي ، ولكن للتعرف على الحياة ، وإشباعاً للنفس بمخالطة المجهول في تلك السن الغضة .

وتحت ضغط والده الذي راح ينصحه باتخاذ عمل يملأ به هذا الفراغ الذي كان يعيشه ، واختار له الانضواء في جيش من جيوش أمراء ذلك الزمان ، فاستجاب أخيراً لتوسلات أبيه فدخل تحت السلاح لمدة أربع سنوات ، وهي المدة التي قضاها الغزالي في عسكر نظام الملك قبل الترحل إلى دمشق وبعد أن اشترك في حصار لاروشيل هجر حرفة الجندي وعقد العزم على أن يتفرغ

للتأمل والنظر ، فانسحب إلى هولانده ، وعاش عيشة العزلة في أمستردام ، ولاهاي ، وليدن وفي ايجمونت العذبة الحلوة الهادئة » .

هذه الادعاءات بأن الفتى الغرير الذي لم يتم تحصيله العلمي فضاق بها ، فإن مثل هذه الادعاءات بأنه كان هارباً من علوم مدرسته التي لم يتذوق بعد منها إلا ما لا يرتقي على ما يحصله الطالب في المرحلة الوسطى من المدرسة الثانوية ، فإن الزعم بأنه تشكك في العلوم الإنسانية كلها زعم باطل يلجأ إليه صاحبه تمحكاً ليخفي من ورائه سر الخيبة التي نزلت به في مستهل شبابه ، وأقل ما يقال في تفسير حالته أنه ابتداء من السادسة عشرة من عمره لم يقرأ كتاباً ، مكتفياً بقراءة كتاب الحياة على حد زعم مترجمه نقلاً عنه ، وإذا كان ديكارت يقول : « إنه شاهد في تجواله الذي اتصل منذ خروجه من المدرسة إلى أن التحق بالجندية نزولاً على توسلات أبيه أي في مدة خمس سنوات ، شاهد أخلاق الناس ، ولمح تضارب الآراء الفلسفية ، وعاد بعد ذلك العلم مرتزقاً في جيش دوق ناسو ، ثم دوق بافاريا لمدة أربع سنوات ، بل إنه بعد ذلك حضر حصار لاروشيل فمتى أتيح لهذه الحياة على تعبير صاحب النبذة التي مررنا بها حالاً أن تعطيه فرصة الاطلاع على فلسفات الفلاسفة ، ولمح التناقضات بينها ، والالتجاء آخراً إلى الاعتكاف لينظر لنفسه طريقة توصله إلى حقائق الوجود من حوله ، وتهديه إلى العمل العلمي السليم ؟ متى أتيح له ذلك وأبوه يرى ضياعه ، ويلتمس له منه مخرجاً بالعمل جندياً متطوعاً ، أو مرتزقاً بجيش أمير من أمراء المقاطعات الأوروبية ؟

إن لهؤلاء تحت تأثير التعصب القومي والعنصري أن يكيفوا التعليلات كيفما حلالهم ، ولكنها تظل أبداً مهتزة ثم تتهافت عند عرضها على الوقائع الصلبة في حياة ديكارت لقد فشل ديكارت في المدرسة ، وخرج منها في السادسة عشرة لا يملك من أسباب العون على التفكير المستقل في مرحلة تكونه

الحيوية والتعليمية ، ما يحمله على التشكك في علوم لم يحصلها بعد . ثم استمر...
لحياة لا يمكن أن نعتبرها مهيئة لحياة فكرية حقيقية فضلاً عن حياة تثمر الثمرة
الخصبة التي قدم من صورها ما يتفق تماماً مع ما رآه « الغزالي » الفيلسوف
المسلم المؤمن ، المجرب ، المبتلى للبحث العلمي ، الضارب في أعماقه النافذ
البصر فيه ، الحاد الذكاء إلى حد الإعجاز ، وقد قدم الغزالي منها ما قدم في
أواخر عمره ، وبعد أن حصل من العلوم وكتب فيها ما كان جديراً حقاً بأن
يدعو صاحبه إلى التأمل ، وتقليب وجوه النظر والحيرة في التماس « الحقيقة
الأبدية » .

وغريب حقاً أن نجد هذا التوازي التام بين حياتي رجلين : عاش أحدهما حياته كلها في القرن الميلادي الحادي عشر ، وعاش الثاني حياته كلها تقريباً في القرن السابع عشر ، وترك الأول ما ترك من آثار اتصلت بالأوربيين منذ مطلع عصر نهضتهم ، وترجم القساوسة منها إلى اللاتينية ما ترجموا مما كان موجوداً بين يدي ديكارت وغيره ، فالغزالي هو العالم المسلم الفيلسوف الهازم للفلسفة هدماً للإلحاد الذي ترتب عليها ، العالم الذي يكتب « تهافت الفلاسفة » فيرد عليه فيلسوف مسلم مثله ، يعيش في إسبانية التي كان القساوسة الأوروبيون يحجون إلى جامعاتها الإسلامية ليتعلموا ، وليلتمسوا النور نجاة بأنفسهم من حلكة الظلام الذي كان يعيشون فيه ، لا غرابة إذن في أن يلفت هذا العالم المسلم الذي يزلزل بعقله القوي ، مكانة فلاسفة اليونان الذين راحت أوروبا تسمع من أعمالهم وأسمائهم خلال القرون الوسطى من الجامعات الإسلامية ، وأثناء الحروب الصليبية ، وطبيعي أن تترجم فلسفته التي تخرج الإلهيات بالعمل العقلي ، وأن تأخذ مكانها بين ذخائرهم لأنها يمكن أن تتحول في أيديهم إلى سلاح ترد به الكنيسة عن نفسها ما تشهره عليها الفلسفة والنظر من حرب اتصلت حتى هزمت الكنيسة فراح قساوستها يحاولون المصالحة بينها وبين دينهم فيعجزون ، وطبيعي أن يخلو ديكارت إليها في هولندا .

كان الغزالي معروفاً من غير شك في أوروبا ، وكانت ترجماته إلى اللاتينية موجودة في خزانات أمرائها وملوكها ، ومن أخطر الأدلة على هذا ، هذا التوازي الدقيق بين حياة « الغزالي » وحياة « ديكارت » ، وبين « منهج الغزالي » الفكري وبين منهج « ديكارت » الذي لم يثبت في حياته السابقة لتقديم « المنهج » أنه كان مؤهلاً ، أو متفرغاً للعمل العلمي المادي إليه قبل أن يعلنه .

وكلما مضينا في طريق المقارنة بين ما يدعى بـ « منهج ديكارت » و « منهج الغزالي » نزداد يقيناً بأن ديكارت لم يصنع أكثر من تقديم « منهج الغزالي » في ترجمته اللاتينية مع مس رفيق من التعديلات والتحوير لا يبدل من حقيقته شعرة ، فكل تأملاته أو اعتراضاته أو الردود على هذه الاعتراضات لا تخرج عن عناصره الصلبة التي قدمها في كتابه « المنقذ من الضلال » ووضحت بعض قضاياه في « تهافت الفلاسفة » .

ذلك هو الغزالي يوم رسم منهجه العقلي العامل ، وخط طريقته في الوصول إلى الحقيقة التي ترد إليه ما تفرق من شتات نفسه ، وترد إلى مجتمع أمته ما تشتت من أمر عقيدتها ، والرجل الذي جد في التحصيل ، وجد في الفهم ، وجد في الإثمار بما لا يكاد يتحقق لقادة الأمم إلا فلتة واستثناء .

كان يرى في نفسه القدرة على العمل لمواجهة تيارات الزيغ الهادرة بعد أن جرب من سُرها ما جرب حتى كادت تبتلعه ، فهو يقنع نفسه بالعودة إلى نشر العلم بعد أن فارقه مختاراً : « لعل الله قد ندبك على رأس القرن لإصلاح ما اعوج من عقيدة أمتك » . ثم يجد من السلطان دفعاً فيمضي .

وهل رأيت إلى « المعيار » الذي اختاره لسبر غور الحقائق الوجودية ؟ معيار دقيق عجيب ، هو المثال الكامل الذي لا يمكن أن يقع عليه إلا الرجل الذي خلق في آفاق الفكر الإنساني ، وابتلى تجاربه ، فحقيقة العلم عنده هي

« العلم اليقيني » يقول : (وظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب معه لتقدير ذلك ، بل إن الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً » .

وهذا الحد للحقيقة هو ما ترجمه ديكارت بعبارته (الجلي المتميز) ذلك أن الزلزال الفكري الذي كانت قد بعثته الصراعات الفكرية بين الفرق حتى استعمل السفسطة كان لا يمكن مواجهته إلا على أساس واضح ثابت من عمل معيار لا تقوم له معارضة .

تلك هي العوامل الهائلة التي جرفت بالغزالي إلى تقديم الشك في حقيقة علمه الواسع العميق العريق ، وذلك كان معيار العلم اليقيني عنده ، وذلك لتحقيق غايتين :

الأولى : إعراء خصمه من أردية المغالطة والثانية : وضع الحقيقة التي إذا انتهى إليها لم يبق مجال للمجادلة فيها بعد أن عرضها قبل خصمه على هذا « المعيار » فلا يقع من ورائه سلاح في يد هذا الخصم .

لقد أبى الغزالي أن يقدم لخصمه الحقيقة إلا بعد أن تتساقط عنها كل أستار الشك ، كان اختياره الدواء بعد تشخيص الداء ، فهو لا يريد أن يداور ، ولا أن يحاور ، ولكن يريد أن يسبق خصمه إلى ما سيواجهه به ، ولذلك قدم الشك ، فأين من هذا كله ما زعم ديكارت ، حين جاء إلى انتحال « منهج الغزالي » في الشك المنهجي ؟ ولنسمع ديكارت وهو يقتفي أثر الغزالي في تقديمه مبررات دخوله عليه ، ثم انظر معياره فيه ، والأمثلة التي يقدمها « للعلم اليقيني » وقِسها وناظر بينها وبين ما قدمه الغزالي فيقول ديكارت : « على أني ما كنت أستهين بالأعمال التي يقوم بها الطلبة في مدارسهم فلقد كنت

أعرف ضرورة اللغات التي تحصل هناك لفهم الكتب القديمة ، وكنت أعرف أن الخرافات تنبه العقول ، وأن الإنجازات المرموقة في التواريخ تسمو بتلك العقول ، وأنها لو قرئت بإمعان تعين على تكوين الحكم ، وإن قراءة كل كتاب جيد بمثابة الحديث مع رجل من أكثر أبناء القرون المواضي أمانة ، بل إنه للحديث المدروس الذي يكشف فيه صاحبه عن خير ما عنده من فكر ، وإن « لعلم البيان » من القوة والجمال ما لا يعلى عليه ، وإن للشعر رقة وعذوبة فاتنتين ، وإن الرياضيات ابتكارات دقيقة جداً ، وهي أقرب إلى إشباع نهم الدارس لها منها إلى تذليل الأعمال وتخفيف الأعباء عن الناس ، وإن كتب الأخلاق تشتمل على كثير من المعارف ، وقدر كبير من الحث على الفضائل فهي كبيرة الفائدة ، وإن الإلهيات تعلمك كيف تكسب السماء ، وإن الفلسفة تسخر لك أداة للحديث في كل شيء حديثاً أقرب إلى صورة الحقيقة ، وتجعلك موضع الإعجاب من الذين يقعون في منزلة دون منزلة العلماء ، وإن التشريع والطب وغيرهما من العلم يؤديان إلى الشرف والشهرة والمال ، وإنه يجب النظر فيها جميعاً حتى أوغلها في الخرافة للوقوف على قيمتها الصحيحة وللاحتراز من الخطأ ، غير أني وجدت آخر المطاف أني أعطيت اللغات وقتاً طويلاً ، ولقراءة الكتب القديمة والتواريخ والخرافات ، وإن الحديث إلى أبناء القرون الأولى لا يزيد فائدة على الترحل .

فمن الخير التعرف على عادات الناس في الشعوب المختلفة حتى يتيسر علينا تقويم عاداتنا ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا شيء يدعو إلى السخرية ، وأنه مناهض للعقل ، كما يحكم أولئك الذين لم يروا شيئاً ، لكن الإنسان عندما يطيل الترحل يغدو غريباً في وطنه ، وعندما يزيد فضول الرجل حتى يحمله على الشغف بما كانت تمارسه القرون المواضي ، فإنه يصبح شديد الجهل بما يمارس هنا في وطنه .

وزيادة على ذلك فإن الخرافات تحمل على تخيل إمكان ما ليس ممكناً ، وأصدق التواريخ إن هي لم تبدل قيم الأشياء أو لم تزدها على حقيقتها لتصيرها مغرية لقارئها فإنها تكاد كلها تجنح إلى إغفال الظروف السيئة ، والأقل تألقاً . وينشأ عن فعلها هذا أن ما نبقيه لا تبدو على حقيقته فيسقط الذين يقرؤونها ويكيفون سلوكهم على غراره في تظرفات كتابنا القصاصين المتجولين ويتلمسون تقليد نماذج فوق طاقتهم وكم كانت تعجبني الرياضيات ، لما تمتاز به من الدقة ، ومن ثبات المقدمات غير أني لم أعرف حتى اليوم مكاناً لاستخدامها .

وكنت أبجل ديانتنا ، وأزعم أن غيرها لا يكسب رضا السماء ، ولكن بعد أن عرفت أوثق المعرفة أن الطريق إليها « السماء » ليس أقل انفتاحاً في وجه أكثر الناس جهلاً منه في وجه أكثرهم علماً وأن الحقائق التي تتنزل من السماء وحياً ، ويسوق الإيمان بها صاحبه إلى السماء ، تقع فوق مستوى ذكائنا ، فإني لم أجرؤ على إخضاعها لضعف تفكيري ، وانتهيت إلى أن النظر فيها ، والنجاح فيه يحتاجان إلى مدد استثنائي من السماء ، إلى أن أكون أكثر من إنسان » . (المنهج ص ٦ ـ ٧) .

وهذا الكلام يتناقض مع محاولته العقلية في إثبات وجود (الله) ويمضي في تناسق مع تفكير الغزالي في الإلهيات .

وسرُّ جرأته على الكنيسة هو ما اقتنع به من نظرات الغزالي إلى الوحي المنزل من السماء ، وما ساقه فيها من التدليل على سلامته مع عزلته عن التفكير القياسي الذي يجري عليه الفلاسفة وهدمه مسالكهم في « الإلهيات » .

والتفاوت الهائل بين تصوفه المستعار من معالجات « الغزالي » للأدلة الدينية ونوعها وبين نظراته الفجة إلى علومه التي حصل منها ماحصل في المدرسة الثانوية ، هي السراج المضيء الذي يضع المأخوذ تحت رائعة النهار .

ودعوى الخروج من هذه المقدمات التافهة إلى « الشك المنهجي » أشبه شيء « بالفأر الذي تمخض فولد جبلاً » فما أصغر المقدمات بالقياس إلى النتيجة ، هذا مع ملاحظة أنه كتب يوم كتب « المنهج » وهو في سن الحادية والأربعين لتغطية فشله المدرسي . ولننظر إليه وهو يترجم كلام الغزالي عندما يصور تحصيله للعلم وسعيه الدائب إليه « ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجَسور لا خوض الجبان الحذور ... المنقذ .

لننظر إليه وهو يترجم هذا النص : « ومن أجل ذلك فإني ما كدت أبلغ السن التي ظننت أنها تسمح لي بالخروج على الإذعان لمعلمي حتى هجرت هجراً تاماً دراسة الأدبيات ، منقطعاً عن الدخول في طلب علوم لم أجدها في نفسي أو في كتاب الدنيا الأكبر ، فاتخذت الترحل بقية شبابي لأرى في التجوال الدروس والجيوش ، ولأختلف إلى أناس من كل صنف ومن كل حال ، ولأقتطف التجارب المختلفة ، وألقي بنفسي في غمار اللقاءات التي اختارها لي حظي ، جاعلاً وكدي تحصيل الفائدة ما قدرت على استخلاصها من أعمال الفكر في كل ما لقيته ، ذلك أن قد بان لي أني أقدر على استجلاء الحقيقة عن طريق تحصيل نظرة كل رجل في مخالطة أعماله التي تشغله فإذا هو أخطأ الحكم عليها لقي عتاب خطئه ، وكنت على تحصيل ذلك أقدر من المشتغل في مكتبه بالأدبيات مخالطاً تأملاته التي لا ثمرة لها ... وكانت تلح علي دائماً الرغبة الحادة في التمييز بين الحق والباطل حتى أكون على بينة في أعمالي ولأمضي آمناً في هذه الحياة ، ومن الحق أني وأنا لا أصنع في تلك المرحلة أكثر من ملاحظة سلوك غيري ، لم أكن أجد فيه ما يطمئنني إليه ، وإني لاحظت فيه من التباين قدر ما لاحظته قبلاً من التباين بين آراء الفلاسفة » .

كل العناصر الأساسية في أقوال الغزالي عن مخالطته أصحاب المذاهب الفكرية الرئيسية في الدولة الإسلامية نقلها « ديكارت » هنا ، مكيفاً لها على قياس إمكانيات الحياة الأوروبية في مطلع عصر النهضة ، والأوساط التي كان ديكارت في ثقافته المدرسية المحدودة يستطيع أن يتصل بها في ظروف الرحلة التي اختارها لنفسه بعد أن آثرها على التحصيل المدرسي أو التلقائي .

فلم يكن ديكارت يومئذ لا من حيث تهيؤه الخاص ، ولا كانت الحياة الأوروبية يومئذ ليعيناه على نقل الصورة التي مرت بها حياة الغزالي بأكثر من هذه الصورة المكيفة .

وإنك لواجد صراحة ونقلاً مباشراً من هذه الفقرة من حديث الغزالي عن نفسه إذ يقول :

« وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل » قول ديكارت : « وكانت تلح علي الرغبة الحادة في التمييز بين الحق والباطل » .

وإنك لتكشف عبارته : « ومن الحق أني ـ وأنا لا أصنع في تلك المرحلة أكثر من ملاحظة سلوك غيري ـ لم أكن أجد فيه ما يطمئنني إليه ، وأني لاحظت فيه من التباين قدر ما لاحظته قبلاً بين آراء الفلاسفة » .

فأي فلاسفة عرفهم « ديكارت » في رحلته المدرسية القصيرة يمكن أن يوازن بينهم وبين هذه الفئات التي كان يخالطها في ترحله الطويل ؟ .

وأما قوله في نقائص العلوم المدرسية التي كان يحصلها ، وزهده في أن يكون طبيباً ، أو مشرعاً مع ماعسى أن يجلب له عملهما من جاه ومن غنى ، « فلم يكن المال ولا الجاه المتوقعان من تحصيل تلك العلوم كافيين لحملي على تعلمها ، فإني بفضل الله لم أشعر بالحاجة إلى اتخاذ العلم مهنة في سبيل الإثراء ، ومع أنني لا أزعم أني أحتقر الجاه تعالياً وجموداً ، فقد كنت قليل الاكتراث به ، حتى أني لم أمد بنظري إلى تحصيل الألقاب الباطلة » المنهج ص ٨ ؛ فهو

صدى قول الغزالي : « ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار » المنقذ .

ولننظر إلى الغزالي عندما يقول : « والعلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الوهم أو الغلط من قبيل العشرة أكثر من الثلاثة » جاء ديكارت على أثره فقال : « لكنني إذا ذهبت إلى تدبر شيء شديد البساطة ، يسير يتصل بالحساب والهندسة كقولي « إن الاثنين مضافةً إلى الثلاثة تؤلف خمسة ، وإلى أشياء أخرى من هذا القبيل » .

وحوَّل ديكارت صورة القدرة الخارقة على أداء معجزة قلب العصا ثعباناً أو الحجر ذهباً ، إلى صورة إله مضلل يضع في عقله طبيعة خاصة مضللة ، ثم رفض وجود هذا الإله المضلل ، أخذها ديكارت عن الغزالي أخذاً مباشراً .

يقول الغزالي عن معجزة عيسى من إحياء الموتى : أنها لا تصلح دليلاً عقلياً على صحة النبوة ، ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلي ، النظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف الناظر دلال المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر ، والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده » .

المعجزة عند الغزالي حقيقة ، وإن اشتبهت بالسحر ، لأن صانع المعجزة يقدمها بعون من الله ، والله لا يضل عباده ، أما الساحر فيقدمها بخداع الأبصار ، وهو الذي تحول عند « ديكارت » إلى « مضلل » .

هذه ملامح مشتركة بين صورة الغزالي وبين الصورة التي أدرج ديكارت نفسه تحتها ، وإن كانت على حالة (كاريكاتير) فإن الأصل لا يغيب عن

العارف أبداً ، وكلها محاولات لنقل جوهر الفكرة ، متنكرة بثوب مزيف .

ولنخطو خطوة أخرى : « فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل كلاماً وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ .

فقال : هو نور يقذفه الله في القلب ، فقيل : وما علامته ؟ فقال : التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود » .

هذا هو الإله الذي استلهم « ديكارت » من إضاءاته الطريق للغزالي الوحي بالقول عن الإله المضلل الذي لو أنه وجد فرضاً فليس بالموجود اعتقاداً ، وبذلك يمكن الاطمئنان إلى المعلومات العقلية المنكشفة المستفادة من العلوم الأساسية الضرورية التي أطال في تفصيل القول فيها ديكارت في غير حاجة إلى الإطالة . وهو يردد كلمة « النور الطبيعي » الذي يرى فيه صاحبه الحقائق الأولية مجردة من الاضطراب ومن اللبس ، وهذا التطابق الكامل بين ما دعي بـ « منهج ديكارت » و « منهج الغزالي » مأخوذ من قول الغزالي : « ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر

المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيَّق رحمة الله الواسعة » وقد عقب الغزالي على حديث رسول الله ﷺ « إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ... » فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب ذلك الكشف .

وهذا هو الذي أوقع في نفس ديكارت ذلك المعنى ، فهو الذي يستنجد به في إثبات وجود الله كفكرة أولية منبجسة في النفس بهدي من وجود الله ، ومشهودة على ضوء « النور الإلهي » الذي يدعوه « بالنور الطبيعي » فوجودها بالنفس دال على وجود الله ، ومن حجبت هذه الفكرة عنه فهو محروم من ذلك « النور الطبيعي » . هي نفس الفكرة التي يرى الغزالي في ضوئها كل « الضرورات العقلية » التي يقبلها على أنها مُسَلَّمات .

وقد أشار الغزالي إلى الأحلام في مستهل حديثه عن قوى الإدراك التي حاول أن يستخدمها في تحصيل الحقائق اليقينية التي يستحق أن تعد عنده علماً أميناً يقينياً ، وقد تابعه ديكارت في ذلك ، جارياً على نفس الترتيب الذي جرى عليه الغزالي من تقديم حكم العقل على الحواس بعد التشكك في تمام سلامة إدراكها ، ومن الاطمئنان إلى الحقائق الرياضية بأكثر من الاطمئنان إلى أحكام العقل في غيرها . ومضى إلى الأحلام باعتبارها حالة من حالات الإدراك تقع من حيث الثبات دون حالة اليقظة (انظر تأمله الأولى) .

يقول في المنهج :

« ولكن تجارب كثيرة قد هدمت شيئاً فشيئاً اطمئناني إلى الحواس فقد لاحظت مرات كثيرة أن الأبراج التي تبدو لي من بعيد مستديرة ، كانت تظهر لي من قريب مربعة ، وأن التماثيل الضخمة القائمة فوق قمم الأبراج تظهر لي صغيرة عند تأملها من أسافل الأبراج ، وفي عدد لا ينتهي مما لقيته منها قابلت الغلط في الأحكام التي قامت عندي بالاعتماد على الحواس الخارجية ،

وليس فيما اعتمدت عليه من الحواس الخارجية فحسب ، بل في الحواس الداخلية أيضاً » . (المنهج ١٢٠) . وهذا الكلام ترجمة قول الغزالي عندما شك في إدراكه الحسي :

« فانتهى لي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، إلى أن يقول :

« من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ؟ وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته » .

هذه بعض أصداء صوت الغزالي في قلب ديكارت ، تتجاوب من جانب إلى جانب في كتابه « المنهج » فهل بعد هذا من اعتراف مسند بالأدلة ؟

لقد هرب ديكارت ، أو تصرف بعض التصرف في ترجمة عبارة الغزالي « المعلوم المنكشف » بقوله : « الجلي المتميز » ، فيقول عنه : « أي الذي لا يقبل الشك أو يحتمله » فيرجع بذلك إلى قول الغزالي :

« فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه الوهم والغلط ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . » . وكذلك راح ديكارت يحاول رفض الدليل غير الموضوعي على زيف الحقيقة المنكشفة من قبيل « أن العشرة أكثر من الثلاثة » باختراع الإله المضلل آخذاً إياه كذلك من قول الغزالي : « والله لا يضل عباده » .

مما سبق تبين لنا بما لا شك فيه بأن « ديكارت » قد أغار على « الغزالي »

غارة لم يرع فيها شيئاً ، ولم يقم اعتباراً لأية قيمة . فهو إنما مثال ورقي للغزالي الفيلسوف المسلم ، لا يمضي خطوة واحدة إلا على أثر خطوة من خطواته . وليس في صفوف السلوك الإنساني ما هو أحقر من سلوك « ديكارت » في انتحاله لنفسه علم الغزالي ، وفكر الغزالي . وليس أبشع من اصطناعه مواقفه ، وتجاربه ، وانصهاره النفسي في حمى معاناته ومكابداته ، ذلك الانصهار المؤمن الذي تمخض عن هذا المنهج ، وبناه لبنة لبنة ، وقطعة قطعة ، وانتهى به إلى نتائجه التي استيقنها الغزالي فرضي بها ، واطمأن إليها عقلاً وروحاً .

ولو أن « ديكارت » لم يكن الشخصية التافهة الهينة في الاعتبار الإنساني فاقتضاه تكوينه وعقله أن يقدر أنه قد يقف يوماً أمام محكمة التاريخ ، فتكشف زيفه ، وهو أن أمره لما غلا هذا الغلو في إقامة نفسه مقام سواه . لكنه كان شخصاً فاشلاً ، لم يلق النجاح في المدرسة ولم يفلح في حياته ، ثم وجد الفرصة المتألقة يوم عثر على « الغزالي » بين تلك اللقى الشاردة من الكتب الغريبة المثيرة لنهم « القارىء » على ما قال هو في وصفها ، فوجد فيها الضالة التي اهتبلها ردت عليه اعتباره ، فيلسوفاً ، يستطيع من فوق قمة فكرها أن يواجه زملاء الدراسة الذين كانوا ، بحكم النجاح الذي لم يحققه لنفسه وحققوه هم لأنفسهم يقعون بحيث يحسدهم فصيرتهم هم حاسديه .

إن التطابق الكامل بين حياة « الغزالي » والصورة التي سيقت على أنها حياة « ديكارت » ، وبين فكر الغزالي ، وما دعي بفلسفة ديكارت ، والغموض المشبوه الذي يحلق حول حياة ديكارت ، كل ذلك وقائع ثابتة تشهد بأن ما دعي بديكارت ، إنما هو شخصية قُدّت على غرار شخصية « الغزالي »[1] .

دمشق ٢٨/ ٤/ ١٩٩٢ — **محمود بيجو**

(١) انظر المدخل إلى التاريخ والأدب العربيين للدكتور نجيب محمد البهبيتي .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فهذا كتاب « المنقذ من الضلال » للإمام أبي حامد الغزالي ، وهو كتاب صغير في حجمه ، عظيم في مادته ، جمع فيه مؤلفه رحمه الله عصارة تجربته الفكرية ، وتجواله في ذلك العالم المديد الفسيح ، وارتقائه من إحترام المحسوس والمعقول إلى الشك فيهما ، ثم نقده لعلم الكلام والفلسفة على السواء وإقباله أخيراً إلى طريق المتصوفة واطمئنانه إلى طريقهم وأنه من أصوب الطرق للتقرب إلى الله ، وبأنه المنهج الأفضل في تلقي المعرفة اليقينية .

حياة الغزالي :

ولد الإمام الغزالي في منتصف القرن الخامس الهجري في طوس ببلاد فارس ، ولد هذا الإمام والفتن الدينية والسياسية تعصف بأمن البلاد ، فالفوضى المذهبية ، وعدم القدرة على الإستقلال في الحكم عليها واستخلاص الصواب من بينها ، فسيطر على الجو الفكري العام الإرتيابية والزندقة ، والتحلل من الدين والأخلاق .

وكانت الاتجاهات الرئيسية الأربعة في صراع رهيب لا ينتهي ولا يعرف له قرار ، وكان يوجد أيضاً بين علماء الدين أنفسهم بعض من لم يلتزموا إلتزاماً تاماً بأوامر الدين ، ولذلك كانوا أمثلة سيئة لغيرهم ، أما أنصار الفلسفة فكانوا يرون

أن الدين شيء خاص بالعامة فقط ، ويشعرون أنهم أرفع من ذلك ، مما دعاهم إلى إهمال التكاليف الدينية .

في هذا الجو المسموم المحموم ، ولد الإمام الغزالي كتلبية لحاجة المجتمع إلى شخصية قوية فذة يجنبه مزالق الردى ، ومهاوي الضلال ، ويقود السفينة إلى بر الأمان وسط هذه العواصف الهائجة المائجة ، فقد كان ضالةَ الناس المنشودة .

ولد الإمام الغزالي سنة (٤٥٠ هـ) (١٠٥٨ م) في مدينة طوس من أعمال خراسان ، وكان والده محباً للعلم والعلماء ، فقيراً متصوفاً لا يأكل إلا من عمل يده في غزل الصوف ، ولما مات ترك ولديه في رعاية صديق له ، حيث أتيح لهما الفرصة لتلقي التعليم الضروري التقليدي حتى نفد ما تركه لهما من ميراث ، فأوصاهما أن يواصلا تعليمهما في إحدى المدارس الموجودة حينذاك . حيث تتاح لهما الفرصة للحصول على التعليم المجاني والقوت .

تلقى علومه في طوس وجرجان حتى بلغ العشرين ، ثم ارتحل إلى نيسابور ، وهناك التقى إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ، ووجد فيه المعرفة بكل أبعادها وشمولها ، فلزمه وأكبَّ على تحصيل العلم بجد متصل ، وجهد دؤوب ، وعقل متفتح ، وقد كان لإمام الحرمين في ولاية (ألب أرسلان السلجوقي) ، وفي وزارة (نظام الملك الطوسي) ، أعظم مركز ديني ، وقد بنيت له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور ، وتولى الخطابة بها ، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة ، وانتهت إليه رئاسة الأصحاب ، وفوض إليه الأوقاف ، وبقي على ذلك قرابة ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع . مسلَّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة ، وكان تلامذته يومذاك قرابة أربع مئة[1] .

وبعد أن برع في العلوم والمعارف تاقت نفسه إلى مجالس نظام الملك وكانت

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٦١/١ .

مجالسه ندوات علمية ، وقد استطاع الغزالي أن يبهر الجميع بسعة علمه ، وسرعة بديهته ، مما ملأ قلب نظام الملك حباً وإعجاباً به ، فعينه مدرساً في المدرسة النظامية في بغداد ، وكانت أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي ، وكان الإنتساب إليها شرفاً وفخراً للطالب والمتخرج ، وكانت وظيفة التدريس فيها مجداً للعالم ، وشهادة علمية ليست فوقها شهادة ، وكانت معقلاً من معاقل السنة ، يدافع عن عقيدة أهل السنة ، وبقي فيها قرابة أربع سنوات من (٤٨٤ هـ - ٤٨٨ هـ) . وهو طور الأستاذية حيث عاش حياة المعلم دائماً ، وقد اعترف الجميع هناك للغزالي بقوة الحجة واتساع المعرفة ، وقد أمضى الغزالي تلك السنوات في عقد مجالس المناظرة والجدل بغية الوصول إلى الحقيقة مع التلاميذ والأتباع . ويبدو أنه قضى تلك الفترة يكتب ويؤلف ويدرس الفرق الأربعة التي تقاسمت الساحة الفكرية فيما بينها آنذاك من معتزلة ، وباطنية ، وفلاسفة ، وصوفية . ولقد اطلع الغزالي على فكر عصره كله وقبل عصره حتى أصبح دائرة معارف وقد وصفه الدكتور إبراهيم بيومي مدكور « وثقافة الغزالي خصبة متنوعة ، عميقة وشاملة ، فهو فقيه ، وأصولي ، متصوف ، وأخلاقي ، متكلم وفيلسوف » .

وقال فيه فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغي : « وإذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام ، وإذا ذكر ابن عربي خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرها . وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته .

يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها ، والغزالي الإجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، والغزالي الفيلسوف ، أو الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالي المربي ، والغزالي الصوفي الزاهد .

وإن شئت فقل : (إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء ، نهم إلى جميع فروع المعرفة) .

إذن لقد واجه الغزالي التيارات الفكرية التي كانت على الساحة وقد جعلها أربع فرق وهم المتكلمون ، والفلاسفة ، والتعليمية ، والصوفية .

وقال : « إن الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذّ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته » .

ولا يمكن أن تكون جميع هذه الآراء صحيحة ، لأن بينها إختلافاً وتناقضاً فأجهد نفسه غاية الإجهاد في تقصي الحقيقة بين هذه الفرق ، لأنه كان حريصاً على معرفة الحق من بين هذه الآراء ، فأقبل عليها بالبحث والتفتيش ، وتحكيم العقل ، فحصّل آراء كل فرقة ، وردّ عليها ، وتفحّص عقيدة كل فرقة ، وميّز المحق من المبطل ، والمتسنن من المبتدع ، فقال :

« ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغّل في كل مظلمة ، وأتهجّم على كل مشكلة ، وأتقحّم كل ورطة ، وأتفحّص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار كل طائفة ، لأميّز بين محق ومبطل ومتسنن

ومبتدع »[1] .

والقيام بمثل هذا العمل الشاق يتطلب أن يكون لدى المرء استعداد فطري وقد وهب الله الإمام الغزالي هذا الإستعداد فيقول : « وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري ، وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد من الصبا »[2] .

فترك التقليد جانباً ، وطرح العقائد الموروثة ، وتجرَّد من كل رأي مسبق ، وأقبل على الآراء المتباينة ووضعها على بساط البحث . لاختيار ما يثبت جودته وصلاحيته ، وترك ما عدا ذلك .

هنا تظهر أزمة الغزالي النفسية ، أو الروحية ، أو الفكرية . وشكه في كل شيء حصَّله طول هذه المدة من عمره . والشك لايظهر فجأة وإنما يأتي هيِّناً ليِّناً خفيّاً ، حتى أن صاحبه لايعيره أي اهتمام ، ثم يقوى ويشتد وينمو ويكبر حتى يملك على الإنسان نفسه .

لقد ألح عليه الشك ولكن السؤال الذي ينبغي أن نجد له جواباً هو متى بدأ هذا الشك ؟ وما هي حقيقة هذا الشك ؟

اختلف العلماء حول تحديد الفترة التي بدأ الشك يدب دبيبه إلى نفس الغزالي ، ولعل الصواب هو في الفترة التي عاشها في كنف أستاذه إمام الحرمين في « نيسابور » فيقول الدكتور سليمان دنيا : « وعندي أن الشك قد لعب مع الغزالي دورين هامين :

دور كان فيه الشك خفيفاً سمحاً من النوع الذي يعتري كثيراً من الباحثين .

---

(١) المنقذ : ص ٢٦ .

(٢) المنقذ : ص ٢٦ .

ودور كان فيه الشك عنيفاً هداماً . من الصنف الذي يعتري كبار الفلاسفة والمفكرين .

أما الدور الأول فيتمثل في أن الغزالي رأى أمامه فرقاً متعددة ، وآراء متنابذة متباينة ، فرأى أن ينصف من نفسه ومن هذه الفرق جميعاً ، فألغى سلطة الآراء الموروثة واطّرح قداستها ، وأخذ يبحث عن الحق من بين هذه الفرق ، فشكه في هذه المرحلة يتشخص – إن صح هذا التعبير – في أي هذه الفرق على حق ؟! ولكن بأي ميزان يوزن هذا الحق ؟. هذا ما لم يدر بخلده في ذلك الوقت »[1] .

شك الغزالي وسلاحه الوحيد العقل والحواس ، فأحس تضارب الأدلة كما حدّث في كتابه « جواهر القرآن » قال حاكياً عن قوم : « وتناقضت عندهم ظواهر الأدلة ، حتى ضلوا وأضلوا » ثم قال عن نفسه : « ولسنا نستبعد ذلك فلقد تعثرنا في أذيال هذه الضلالات مدة » فكان لا بد أن يفحص الأدلة ويفحص موازين الحقيقة فقال : « فما دام العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً مَنْ يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل منه إلا التعجب من كيفية

---

(١) وعندي : لو أن الإمام الغزالي كان متمكناً من الكتاب والسنة لوجد فيهما الميزان العادل لكل هذه الآراء المتباينة المتناقضة . ولخرج من هذه الأزمة بل قُل لما تعرض لهذه الأزمة المرهقة ، ويبدو أن بضاعته في السنة كانت مزجاة كما قال عن نفسه ، ونجد مصداقها في الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي كثرت في كتبه وخاصة « إحياء علوم الدين » .

قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته فلا ، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لاثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لأمان معه فليس بعلم يقيني »[1] .

إلى هنا ما زال الغزالي معوّلاً على العقل والحواس ، ولكنه سرعان ما اكتشف خداع الحواس فألغى العلم الذي يأتيه من طريق الحواس فقال :

« فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ؟ وأقوى الحواس حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذّبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته »[2] .

وسرعان ما قاد الشك إلى أن يشكك في العقل فقال : « قالت لي المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلّى كذّب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذّب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته »[3] .

لقد نفض الإمام الغزالي يده من الحواس والعقل كليهما و لم يبق سوى إلحاح الشك القوي الذي يكاد يخنقه فلما وصل إلى هذا الضيق لم يلبث الأمر أن

(١) المنقذ : ص ٢٨ .
(٢) المنقذ : ص ٢٩ .
(٣) المنقذ : ص ٣٠ .

اتسع فقال يصف حاله : « فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، و لم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلّمة لم يمكن تركيب الدليل ، فأعضل الداء ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لابحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والإعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، و لم يكن ذلك بنظم دليل ولا ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة . فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة »[1] .

إذن لقد عاد الإمام الغزالي وعادت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، وهي طريقه إلى العلم اليقيني ولكن أيٌّ من هذه الفرق المتصارعة على حق ؟ فما دام الإمام قد وصل إلى حقيقة العلم وحقيقة الميزان فما عليه إلا أن يوزن هذه الآراء المتباينة المتناقضة ويستخلص منها الحق من الباطل وبدأ بدراسة هذه المذاهب الفكرية وبدأ بعلم الكلام ثم بالفلسفة ، ثم مذهب التعليمية (أصحاب الإمام المعصوم) ومربعاً بمذهب الصوفية .

١ ـ المتكلمون

نشأ علم الكلام بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموعة ظنون لاتقوم على أساس علمي ، وطلسمات تبهر الإنسان حتى إذا فحصها لم يجدها شيئاً ، وكان المسلمون في غنى عن ذلك بما في الكتاب والسنة من علم محكم ، وبيِّنة واضحة ، ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك ، فالتزموا بما علّمهم الرسول ﷺ فكُفُوا المؤونة ، وسعدوا بالثمرة ، فوفَّروا ذكاءهم وقوَّتهم

(١) المنقذ : ص ٣٢ .

وجهادهم في غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا في الدين بلب اللباب ، ولكن المعتزلة كانوا أسرع فئات المجتمع افتتاناً بمنطق اليونان ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد ، ولكنه ذكاء ليس فيه عمق ونبوغ ، وقد أخطأ كثير منهم في فهم حقيقة الدين ، وأسرفوا في تمجيد العقل ، فجاءت مباحثهم مستعجلة وفجة ، وحاولوا إخضاع الدين للمنطق اليوناني وتأولوا القرآن على آرائهم ، وقد أوقف مدهم رجل منهم عاش بينهم أربعين سنة يحمل لواء دعوتهم وهو الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى ، ثم تبعه آخرون كأبي منصور الماتريدي ، والباقلاني ، وغيرهم ، واستطاعوا أن يهزموهم في معترك العلم والعقل ، ويغيروا اتجاه الطبقة المثقفة ، وهؤلاء هم الذين عناهم الغزالي في بحثه في علم الكلام . ولما لم يجد الغزالي شفاءه في علم الكلام يمم شطر الفلسفة .

٢ ـ الفلاسفة

انتقلت الفلسفة اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية بتوجيه من المأمون الخليفة العباسي وبجهد من المترجمين ، فأقبل الغزالي على الفلسفة لأنه رأى أن الذي يريد أن يحكم على علم من العلوم عليه أن يعرف كنهه ويحيط بمقاصده وكلياته حتى يساوي أعلم الناس بذلك العلم ، فأقبل على الفلسفة يدرسها دراسة عميقة ثم تناولها بالتحليل والتقسيم ، وذكر أصناف الفلاسفة ، وأقسام علومهم ، وما يمس الدين من آرائهم وبحوثهم ويتصل به ، وما لا يمسه ولا يتصل به تحليلاً علمياً ، وقسم علومهم إلى ستة أقسام :

١ ـ رياضية ، ٢ ـ منطقية ، ٣ ـ طبيعية ، ٣ ـ إلهية ، ٥ ـ سياسية ، ٦ ـ خلقية .

وبعدما درس الغزالي جميع هذه العلوم دراسة عميقة شاملة يئس من أن ينال بغيته في هذه العلوم . فيقول :

« ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه ، وتزييف ما يزيف منه . علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب . ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات »[1] . وخاصة في خوضها في الإلَهيات وهي أبحاث في الوثنية اليونانية ، أفاضوا عليها صبغة من الفن وهي وثنية تعارض التوحيد ، وهي تشتمل على ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لاحقيقة لها ولا معنى . ولقد كانت الأمة في غنى عن الإشتغال بهذه الفلسفة الخرافية ، ولكنهم انبهروا ببراعة اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات ، فأقبلوا على هذه الفلسفة الإلَهية في شيء من التمجيد والتقديس ، وكأنهم ليسوا أصحاب كتاب ، وكان على رأس هؤلاء الفلاسفة يعقوب الكندي (٢٥٨ هـ) والفارابي (٣٣٩ هـ) وابن سينا (٤٢٨ هـ) .

ولم تكن هناك ناحية من نواحي الحياة الفكرية إلا وقد تأثرت بهذا التحول ووجدت طبقة تستهزىء بالدين وتزدريه في غير احتشام وفي غير كتمان ، ومنهم من لم يكن يملك الشجاعة الأدبية ليعلن ما أعلنه غيرهم ، فكانوا يظهرون الإسلام وهم يبطنون الكفر والإلحاد .

٣ ـ الباطنية

وهم فئة نشأت بانتشار الفلسفة ، والإضطراب الفكري الذي كان يسود المجتمع الإسلامي نتيجة صراع الفلسفة وعلم الكلام ، فهبت ريح الباطنية واجتمع حولهم أناس بدوافع شتى وأغراض مختلفة ، ومهما كانت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيعاً وأنصاراً ، وأصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها وتخشى غائلتها ، وتحسب لها الحكومات الحساب الكبير . واستعملوا العنف والسلاح حتى اغتالوا نظام الملك الطوسي ، ومن بعده فخر الملك ، ودسّوا في العلم والأدب ، وتأثرت بهم العقول والنفوس ، حتى تجاسر الناس

---

(١) المنقذ : ص ٥٢ .

على تأويل النصوص والقطعيات ، وتحريف الأصول والمحكمات ، ووجد في الناس إقبال غريب على الإلحاد والتطرف في الإعتقاد . وهم لا يعترفون للعقل بأي دور في مجال المعرفة ، وإنما هم يتلقون العلم والمعرفة من الإمام المعصوم وقد سماهم الغزالي « بالتعليمية » إشارة إلى أساس نظريتهم وهي التعليم ، فأقبل الغزالي على الباطنية ودرس عقائدهم وعلومهم ووصل إلى أنه « لاحاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة »[1]. رفض الغزالي تعاليم الباطنية وأصابها في الصميم ، وبرهن أن نظرية التعليم من الإمام المعصوم تناقض نفسها بنفسها وهذا يجعل « رتبة هذه الفرقة أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال ، إذ لانجد فرقة ينقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه »[2] .

٤ ـ الصوفية

بعد أن نفض الغزالي يده من المتكلمين والفلاسفة والباطنية ونقدهم وكشف عوارهم ، ومزق أستارهم ، لم يبق أمامه سوى الصوفية وهم أمله الأخير في الحصول على السعادة واليقين . فبدأ بدراسة كتبهم دراسة جادة ، وحصَّل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتَّعلم والتسامع ، ويواجه الغزالي مشكلة جديدة ، وأزمة نفسيه عنيفة فظهر له على أثرها أن أخصَّ خواص الصوفية ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم . بل بالذوق والحال وتبدل الصفات فيقول :

« فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لاأصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصَّلته . ولم يبق إلا ما لاسبيل إليه بالسماع والتعلم ،

---

(١) المنقذ : ص ٥٣ .

(٢) انظر فضائح الباطنية ص٥٢١ — ٥٢٣ .

بل بالذوق والسلوك » . ووجد أن الطريق الصوفي لايتلاءم بأي حال من الأحوال مع الواقع الذي يعيشه ويسعى وراءه من جاه ومال وشهرة فيقول وهو يصور صراعه النفسي :

« ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال »[1] .

وبقي في هذا الإصطراع النفسي ستة أشهر حتى غلب على أمره ، وأفلت الزمام من يده ، وانتقل من الإختيار إلى الإضطرار ، حتى سهلت عليه مفارقة الأهل والدار ، ونفض يده من الجاه والمال ، وخرج من بغداد يطلب السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية حتى أكرمه الله بها فيقول :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الإختيار إلى الإضطرار »[2] .

واستقر على طريق الصوفية حيث يصف الغاية التي وصل إليها والنتيجة التي نالها في هذه الرحلة الشاقة والبحث المضني وراء المعرفة الحقيقية والسعادة الروحية فيقول :

« ودمت على ذلك عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره ينتفع به . إني علمت أن

(١) المنقذ : ص ٦٢ .

(٢) المنقذ : ص ٦٣ .

الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيِّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور مشكاة النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »[1] .

وبعد هذا التجوال آن للغزالي أن يخرج من خلوته لأنه لم يخلق ليعيش لوحده ، ومن آتاه الله من الإمكانات العظيمة والقدرة على رد أباطيل الفلسفة التي تسلطت على عقول الناس ، والفساد الأخلاقي الذي أصيب به المجتمع الإسلامي ، خرج الغزالي وقام بهذه المهمة العظيمة بعد أن تهيأ لها علمياً وفكرياً وعملياً فيقول :

« رأيت نفسي ملية لكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء »[2] . ولكنه يصور لنا حالة التردد التي ظهرت له ثانية هل يخرج من العزلة أم يبقى ؟ فيقول :

« انقدح في نفسي أن ذلك — محاربة الفساد ، والرد على الفلاسفة والباطنية متعين في هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟ ثم قلت في نفسي : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك

---

(١) المنقذ : ص ٦٤ — ٦٥ .
(٢) المنقذ : ص ٧٥ .

أهل الزمان بأجمعهم ، وأنّى تقاومهم ؟ فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر » .

ونوى بينه وبين نفسه الإستمرار على العزلة ، ولكن الله أراد له أن يخرج فأتاه أمر من السلطان ، وأمره أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور ، وانضم إلى ذلك مشاورة جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المئة » .

وخرج الغزالي من عزلته ، وبدأ يزاول عمله من تدريس وتأليف ودعوة في « نيسابور » ، ولكن شتان بين الحالتين ، فهو الآن يقوم به بأمر من الله ، متجرداً عن طلب الجاه وحظوظ النفس فقال :

« وأنا أعلم أني — وإن رجعت إلى نشر العلم — ما رجعت ، فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري »[1] وكان ذلك سنة (٤٩٩ هـ) ولكن « فخر الملك » اغتيل بيد باطني سنة [٥٠٠ هـ] وعاد الغزالي إلى العزلة ثانية على أثر هذه الحادثة . ولست أدري هل للإغتيالين إغتيال نظام الملك ثم من بعده فخر الملك دخل في اتجاه الإمام الغزالي وسلوكه هذا المسلك أم لا ؟ وبقي في طوس إلى أن توفي رحمة الله عليه سنة [٥٠٥ هـ] بعد أن بنى بجوار بيته مدرسة لطلبة العلم ، وداراً للصوفية وظل عاكفاً على التربية والتعليم ،

---

(١) المنقذ : ص ٧٧ .

والإشتغال بالدين وقراءة القرآن ، ومجالسة أرباب القلوب و لم ينقطع عن التأليف والإنتاج . بقيت نقطة طالما غفل عنها الباحثون في فكر الغزالي والكاتبون لسيرته إلا قليلاً منهم ، وهي أثر الغزالي في الفكر المعاصر ، وقبل أن نحاول السير في هذا الطريق علينا أن نفهم مدى العلاقة بين منهج ديكارت أبو الفلسفة الحديثة من ناحية ، وفرنسيس بيكون أبو المنهج التجريبي . من ناحية أخرى ، وبين منهج الغزالي لقد عاش ديكارت أبو الفلسفة الحديثة في حالة الشك التي عاشها الغزالي مع فارق كبير بين طبيعة الشك لدى الفيلسوفين ، فالشك عند الغزالي كان عقلياً ونفسياً ، وتجربة وجدانية عميقة أثرت في منحى حياة الغزالي ، وجعلته ينتقل من حالة إلى حالة انتقالاً نفسياً قبل أن يكون فكرياً ، ولكن طبيعة الشك عند ديكارت جاء ذهنياً بارداً لاحرارة فيه ، تناول الأمر من السطح دون أن يمس قلبه وضميره ، بل قد أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنَّ ديكارت قد اطلع على مجمل فكر الغزالي كحد أدنى ، وتفاعل مع هذا الفكر ، وترجمه إلى لغته ونسبه إلى نفسه ، فإن من يقرأ « مقالة عن المنهج » أو « تأملات » ديكارت فسوف يجد فقرات بأكملها من « المنقذ من الضلال » للغزالي ، وخير من قام بهذه المقارنة هو الدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه « المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت » ، طرح فيه قضية تأثر ديكارت بالغزالي ، وهل قرأ ديكارت « منقذ » الغزالي أم لا ؟ وكتب الدكتور زقزوق نتائج بحثه في هذه القضية في مقدمة الطبعة الثانية حيث كشف عن أن أحد الباحثين التونسيين وهو « عثمان الكعاك » قد عثر بين محتويات مكتبة ديكارت الخاصة بباريس على ترجمة لكتاب « المنقذ » للغزالي ووجد أن ديكارت قد وقف عند عبارة الغزالي الشهيرة « الشك أول مراتب اليقين » ووضع تحتها خطاً أحمر ثم كتب على الهامش ما نصه « يضاف ذلك إلى منهجنا »[1] .

---

(١) انظر المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت . للدكتور محمود حمدي زقزوق الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ص ٦ =

وليس هناك أي مجال للتشكيك في صحة هذه المقارنة والرواية التي أكدت صدق الإحتمال الذي ذهب إليه بعض العلماء وعلى رأسهم الدكتور زقزوق .

وقبل أن أنقل شيئاً من هذه المقارنة لابد أن أعرِّف بالرجلين الذين قام الفكر الأوربي المعاصر على منهجيهما ، وكان لهما أثراً كبيراً في النهضة الأوربية .

فرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦ م)

يعتبر فرنسيس بيكون فيلسوف الطريقة العلمية التجريبية قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن ، انتقل العالم الأوربي من العصور الوسطى المظلمة إلى عصر الثورة العلمية ، ولابد من إشارة موجزة إلى أن الذي سبقه في وضع أسس هذا المنهج هو روجر بيكون ، الذي عاش ما بين (١٢١٩ — ١٢٩٢ م) وكان قد درس اللغة العربية ، والعلم العربي ، والعلوم العربية في أكسفورد على يد خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وكان لايمل من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية ، وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ومن المعروف أن المنهج العلمي التجريبي قد نشأ في ظل الإسلام في جامعات الأندلس والشرق ، وليس من العدل والإنصاف أن ينسب هذه المنهج إلى روجر بيكون ومن بعده فرنسيس بيكون فلم يكونا إلا رسولين من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا ، ويشير روجر بيكون إلى ابن الهيثم ويستشهد به وبابن سينا والكندي وغيرهم .

لقد رأى فرنسيس بيكون أن مفاهيم الماضي ومناهجه لم يقوما على أساس صلب وإنما على مكانة قائليها ، لذلك ألح على أن تغيير المناهج أمر لابد منه لأنه

= وانظر (محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي) عنابة الجزائر (١٣٩٦ — ١٩٧٦ م) ص ٣٣٣ من المجلد الأول . وانظر أيضاً « المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين » للنجيب محمد البهيتي دار الثقافة في المغرب .

سيفضي إلى عقلية جديدة وفكر جديد وهذا مصداق ما قاله الغزالي في « المنقذ » .

« والعارف العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله ، سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال » . ويقول في « ميزان العمل » :

« ومن الناس من يقولون الرأي عن هوى ، ثم يتعللون بأنه مذهب فيلسوف معروف كأرسطو وأفلاطون ، والأغلب أن من يسمع لهم لايطالبهم ببرهان لموافقة قولهم لطبعه » .

ويرى بيكون أن الإنسان الذي يريد أن يكون قادراً على التفكير الحر لابد له من التخلص من أربعة أشياء :

١ ـ التخلص من الأفكار التي تصور الذات الإلَهية بزعيم قبيلة ، أو شيخ عشيرة ، يأمر وينهى ويصرف شؤون الناس وحوله من يطيعون وينفذون .
٢ ـ التخلص من الأهواء الشخصية والميول السياسية والمطامع الذاتية .
٣ ـ عدم إطلاق الشعارات التي لم يؤيدها دليل ، والتخلص من الكلمات الرنانة الجوفاء التي تخاطب العواطف .
٤ ـ رفض الموروث الفلسفي الخاطىء الذي لاتؤيده التجربة ولا يسنده الواقع .

ولقد رأى بيكون أن النفس إذا تحررت من الأهواء والشهوات والعقل إذا تخلص من إسار الموروثات يمكن أن تعطي ظواهره تفسيرات سليمة . لاأريد أن أطيل البحث والمقارنة بين طرح هؤلاء وبين فكر الغزالي فهذا له مجال آخر

ولكن الذي يريد أن يعرف الحق يستطيع أن يصل إليه بسهولة ويسر ولين ورفق .

والآن أريد أن أصل إلى ديكارت أبي الفلسفة الحديثة (١٥٩٦ ١٦٥٠ م) يعتبر واضع اللبنة الثانية في صرح الفكر بعد أن وضع بيكون اللبنة الأولى ، بوضعه الطريقة التجريبية في تكوين المعرفة . وقد قام بالمقارنة بين منهج الغزالي ومنهج ديكارت خير قيام الدكتور محمود حمدي زقزوق كما ذكرت آنفاً لنستمع إلى ديكارت وهو يروي قصته لعلنا نضع أيدينا على نقاط هامة يقول : إنه اعتكف ذات مرة ، في يوم برد قارس ، أمام مدفئة حجرية ، وأخذ يفكر في هذا الكون وما ينطوي عليه من أسرار ، فوصل به تفكيره إلى نتيجتين : أولاهما أنه يشك في صحة كل المبادىء الموروثة المتحدرة من السابقين ، وأن المنطق السليم يقتضي الإنطلاق من مبادىء مسلَّم بها ، لا تقبل الجدل ، فيبني عليها صرح العلم من جديد . والنتيجة الثانية التي توصل إليها هي أن عليه هو نفسه أن يحصل على المعرفة الحقيقية وأن يبدأ العلم من جديد ، وذلك بأن يرسم لنفسه برنامجاً مفصلاً متكاملاً .

وأوى إلى فراشه ، بعد أن أشبع ذهنه بسلامة الخطة التي اختطها لنفسه ، فرأى في منامه كأنه في شارع طويل مجهول تتقاذفه ريح صرصر عاتية ، وهو مقعد لايقوى على الوقوف ، يئن من وجع في ساقه . ولما أفاق من نومه أوَّل رؤياه بأنها تحذير له من السير في دروب السابقين واقتراف أخطائهم . ثم أغفى فأيقظه هزيم رعد وشرر يتطاير من حوله ، وأفاق فقال في نفسه : هذه رؤيا ثانية ، وأوَّلها بأن روح الحق قد هبطت عليه وحمَّلته رسالة له في الحياة . وأغفى مرة أخرى ، فرأى كأنه واقف وفي يده قاموس ، ثم كتاب يدله على أي مسلك في الحياة يسلك ، ثم يأتيه وجه غريب يوقظه بأبيات من الشعر فينهض ويؤول رؤياه هذه بأن طريق المعرفة الحقة قد فتحت له .

هذه الرؤى فيها تصنع وافتعال ظاهران ولعله افتعل هذه الرؤى ليغطي على أخذه – بعد اهتدائه إلى « المنقذ » – من فكر الغزالي . وأريد أن أنقل شيئاً من المقارنة التي عقدها الدكتور زقزوق .

ماهية العلم

لقد قال الغزالي : « إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟» .

وقال ديكارت في « القواعد » : « إن الأداة الحقيقية لكل علم وكذلك المنهج كله يتمثلان في بحث ما يأتي : ما هي المعرفة وما هو المدى الذي تمتد إليه ؟.

يقول الغزالي عن العلم اليقيني : « العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم » ويقول ديكارت : « إنه يجب على المرء في أثناء البحث عن الحقيقة أن يرفض كل علم لايكون واضحاً وضوحاً مطلقاً » .

المعرفة الحسية

يقول الغزالي : « من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ... الخ فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً » .

ويقول ديكارت : « كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء

وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو بواسطة الحواس . غير أني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الإطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة » .

وهكذا يمضي الدكتور زقزوق في بحثه ، وجاء الباحث التونسي « عثمان الكعاك » ليحسم كل أوجه الإحتمالات بأن وجد نسخة مترجمة من « المنقذ من الضلال » في مكتبة ديكارت الخاصة . مما لم يترك أي مجال للشك أو التشكيك في تأثر ديكارت بالغزالي .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

وأتقدم بالشكر لكل من فضيلة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على ما بذلا من جهد أثناء مراجعة الكتاب . فجزاهما الله خيراً .

كلمة شكر

أقدم خالص شكري لفضيلة الدكتور محمود حمدي زقزوق عميد كلية أصول الدين بالقاهرة وأستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر وحالياً الأستاذ في كلية الشريعة جامعة قطر . الدوحة الذي تفضل بتزويدي بالمعلومات التالية حول تأثر ديكارت بالإمام الغزالي :

هناك شواهد كثيرة تشير إلى إمكان تعرف ديكارت على أفكار الغزالي حول الشك المنهجي إما بطريق مباشر أو غير مباشر . وأحدث ما توصل إليه الباحثون حول هذا الموضوع ما ذكره الصديق الدكتور عبد الصمد الشاذلي المحاضر بجامعة جوتنجن بألمانيا في مقدمة ترجمته لكتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي إلى الألمانية ، والتي صدرت هذا العام (١٩٨٨) في سلسلة « المكتبة الفلسفية » الشهيرة في هامبورج ألمانيا . فقد أشار إلى أن هناك حقيقة ثابتة تتمثل في أن بعض المستشرقين الذين كانت تربطهم صلة صداقة بديكارت كان لديهم النص العربي لكتاب المنقذ من الضلال للغزالي ومن بين هؤلاء الأصدقاء كان المستشرق الشهير جاكوب جوليوس **Jakob Golius** (١٥٩٦ — ١٦٦٧) ، كما كان لدى ليفنيوس فارنر **Levinius Warner** — وهو تلميذ لجوليوس المشار إليه — مخطوط لكتاب المنقذ من الضلال . وقد آل هذا المخطوط عام ١٦٦٥ إلى حوزة مكتبة جامعة ليدن بهولاندا ، ولا يزال هناك حتى اليوم في مكتبة جامعة ريك بليدن تحت رقم Or .946 (1) . ومعروف أن ديكارت قد توفي عام (١٦٥٠) وفضلاً عن ذلك لايزال هناك حتى اليوم في قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (24—Fol. 25) 1331 مخطوط لكتاب المنقذ من الضلال كان معروفاً

في فرنسا في العصر الذي عاش فيه ديكارت . وقد أثبت البحث مؤخراً تأثر ديكارت بالغزالي ، فقد قرر المؤرخ التونسي المرحوم الأستاذ عثمان الكعاك في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر في عام ١٩٧٦ أنه عثر على ترجمة لاتينية من القرن الرابع عشر لكتاب (المنقذ من الضلال) للغزالي في مكتبة ديكارت بدار الكتب الوطنية الفرنسية في باريس ، وأنه استحضر بالفعل صورة من هذه الترجمة ، ووجد أن ديكارت قد كتب بخط يده تعليقاً على الأجزاء الخاصة بالشك يقول فيه : « يضاف هذا إلى منهاجنا » . (راجع في ذلك ص٣٣٣ من المجلد الأول من « محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي ») — عنابة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

وقد أفاد الصديق الدكتور عبد الصمد الشاذلي — الذي قام بترجمة (المنقذ من الضلال) إلى الألمانية — أفاد بأنه كتب إلى المكتبة الوطنية الفرنسية يستفسر عن الترجمة اللاتينية لكتاب (المنقذ من الضلال) والتي أشار إليها الأستاذ الكعاك ، وقد تلقى رداً من المكتبة المذكورة في ١٩٨٥/٨/٢٩ وفيه تنفي المكتبة وجود مثل هذه الترجمة كما تنفي أيضاً أن يكون لديها ما يسمى بمكتبة ديكارت .

وقد أفاد الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده بأنه كانت هناك محاولة عربية استهدفت الوصول إلى الترجمة اللاتينية لكتاب المنقذ . ولكن هذه الجهود باءت بالفشل نظراً لأن المسؤولين الفرنسيين قد تنبهوا للأمر فسحبوا النسخة من المكتبة ومنعوا عرضها .

وهكذا لم يبق هناك من سبيل إلا محاولة العثور في مخلفات المرحوم عثمان الكعاك على المصورة التي أشار إليها للترجمة اللاتينية لكتاب المنقذ . فلعل الله يوفق أحد الباحثين من الأخوة التونسيين للإهتمام بهذا الموضوع .

المنقذ من الضلال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبثّ[1] إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب[2] وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين[3] المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الإرتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يفاع[3] الإستبصار ، وما استفدته ، أولاً من علم الكلام ، وما اجتويته[4] ، ثانياً من طرق أهل التعليم ، القاصرين[4] لدرك الحق على تقليد الإمام وما ازدريته[5] ، ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته ، آخراً من طريقة التصوف ، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة وما ردّني إلى معاودتي « بنيسابور » بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه : اعلموا — أحسن

---

(١) أبث إليك : أذكرها لك وأظهرها وأطلعك عليها .

(٢) غائلة المذاهب : فسادها وشرها .

(٣) تباين : اختلاف وتفرق . يفاع : ما ارتفع عن الأرض .

(٤) اجتويته : كرهته وبغضته ، القاصرين : الحاصرين الذين حصروا معرفة الحق على تقليد الإمام .

(٥) ازدريته : حقرته ، وعبته .

تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم – أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة[1] في المذاهب على كثرة الفرق ، وتباين الطرق . بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »[2] . وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلوات الله عليه ، وهو الصادق المصدوق حيث قال : « سَتَفْتَرِقُ أُمتي ثَلاثاً وسَبْعِين فِرْقَةً ، النَّاجِيةُ مِنْها واحدةٌ »[3] فقد كان ما وعد أن يكون ولم أزل في عنفوان شبابي – منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين – أقتحم لجّة هذا البحر العميق[4] ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغّل في كل مظلمة ، وأتهجّم على كل مشكلة[5] ، وأتقحّم كل ورطة[6] ، وأتفحّص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميّز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع[7] ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطّلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا

---

(١) الأمة : الأئمة المجتهدون ، اختلاف الناس .

(٢) الروم [٣٢] والمؤمنون الآية [٥٣] .

(٣) قطعة من حديث رواه أبو داوود رقم (٤٥٩٦ و٤٥٩٧) في السنة ، باب شرح السنة ورواه أيضاً أحمد في « المسند » (١٠٢٤) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ورواه الترمذي باب ما جاء في افتراق الأمة رقم (٢٦٤٢) في الإيمان من حديث أبي هريرة وقال الترمذي : حديث أبي هريرة حسن صحيح وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك انظر جامع الأصول (١٠ / ٧٤٩٠)

(٤) هذا البحر العميق : يقصد بحر المعرفة .

(٥) مشكلة : ما لا يفهم حتى يدل عليه دليل من غيره .

(٦) ورطة : كل أمر تعسر النجاة منه ، والأمر الغامض العميق الغور .

(٧) مبتدع : صاحب بدعة وهو الاختراع في الدين .

وأترصد[1] ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً[2] معطّلاً[3] إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني[4] ، من أول أمري ؛ وريعان عمري ، غريزة وفطرة[5] من الله وضعها في جِبِلّتي[6] لاباختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصِّبا ، إذ رأيت : صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التَّنَصُّرِ ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التَّهَوُّدِ ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ ، وَيُنَصِّرَانِهِ ، وَيُمَجِّسَانِهِ »[7] فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة[8] بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت في نفسي : أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم

---

(١) أترصد : أراقب .

(٢) الزنديق : من يظهر الإيمان ويتجمل به ويبطن الكفر (فارسية معربة) .

(٣) المعطّلة : فرقة تقول : بأن الله عالم بذاته ، سميع بذاته لا بصفة زائدة فهم معطلون للصفات .

(٤) دأبي وديدني : عادتي وشأني .

(٥) الفطرة : الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه ، والطبيعة السليمة التي لم تشب بعيب . وفي اصطلاح الفلاسفة : استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .

(٦) الجبلة : الخلقة والطبيعة .

(٧) أخرج الشيخان البخاري رقم (١٢٩٢) و(١٢٩٣) و(١٣١٩) . ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة . وفي بعض الألفاظ « ما من مولود » ولفظ مسلم : « فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه » ولفظ البخاري « فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّساه » . وفي رواية عند مسلم : فقال رجل : يارسول الله أرأيت لو مات قبل ذلك ؟ قال : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِين » .

(٨) العارضة : المناقضة ، العالقة بدون روية .

ما هي ؟ فظهر لي : أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم[1] ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين[2] ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه – مثلاً – من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإني إذا علمت : أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته ، فلا ، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني »[3] .

---

(١) الوهم : ما يقع في الذهن من الخاطر والتخيل .

(٢) اليقين في الفلسفة : اطمئنان النفس إلى حكم مع الاعتقاد بصحته .

(٣) هذه هي النظرة العلمية المنهجية التي وصل إليها بعده بخمسة قرون كلٌ من « ديكارت ، وفرانسيس بيكون » اللَذان يعتبران فاتحة العصر الحديث في الفكر الأوروبي ، وذلك بوضعهما المنهاج الجديد وهذا المنهاج الذي وضعاه لايكاد يختلف في نقطة واحدة مع ما أورده الغزالي في كتبه ، وخاصة كتابه هذا « المنقذ من الضلال » . ولعلهما اطلعا على فكر الغزالي واستفادا منه واقتفيا أثره في منهجهما . ومن الثابت أن هذا المنهج التجريبي قد نشأ – في ظل الإسلام – في جامعات الأندلس والشرق ، يقول « بريفولت » في كتابه : « بناء الإنسانية » :

إن روجر بيكون ، درس اللغة العربية ، والعلم العربي ، والعلوم العربية في مدرسة أُكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميِّه « فرنسيس بيكون » الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن « روجر بيكون » إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قطُ من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي ، هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس ، في لهف ، على تحصيله في ربوع أوربا » . فهل يفهم محترفو الغزو الفكري ؟!

مدخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات[1] ، والضروريات[2] .

فقلت : الآن بعد حصول اليأس لامطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات[3] وهي الحسيات ، والضروريات ، فلابد من إحكامها[4] أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لاغدر فيه ، ولا غائلة له .

فأقبلت بجد بليغ ، أتأمل المحسوسات والضروريات ، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة — بعد ساعة — تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة ، بل بالتدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف . وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . هذا ، وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ويكذّبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً

---

(١) الحسيات : ما تدركه الحواس (المحسوسات) .

(٢) الضروريات : البدهيات والمسلّمات .

(٣) الجليات : الواضحات .

(٤) إحكامها : إتقانها .

لاسبيل إلى مدافعته[1] فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، فلعله لاثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لايجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لايكون قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .

فقالت الحواس : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلى كذّب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذَّب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته !!

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً وأيدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم : أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل . فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك

---

(١) إن ما قد ظنّه الغزالي خطأً وقعت فيه حاسة البصر ثم صححه حاكم العقل ، إنما هو خطأ في الإستدلال العقلي لافي الإدراك الحسي ، وذلك أن نفي الحركة عن الظل إنما كان الخطأ هو من هذا الاستدلال ، لأن الذي نبهني للخطأ بعد ذلك هو لقطة حسية أخرى جاءتني عن طريق المشاهدة — والمشاهدة إدراك بحاسة البصر — بعد ساعة كما يقول الإمام الغزالي . وقد قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ ، لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً) الفرقان [٤٥ — ٤٦] وانظر تفسير الآية .

وكذلك رؤية الكوكب صغيراً في مقدار دينار فالخطأ هنا أن أستدل مما أراه نتيجة لاتلزم بالضرورة عنه ، بل الواجب المنهجي هو أن أقول : إن حجم الكوكب في رؤيتي هو كحجم الدينار ، أما ماذا يكون حجمه في الحقيقة فطريق العلم به طريق آخر . بعد أن أحسب بعد الكوكب عني ، ومعرفة كل الأمور المتعلقة بالموضوع . وقد بيَّن ذلك الإمام الغزالي بقوله : « ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار » .

حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها[1] .

ولعل تلك الحالة ، ما تدَّعيه الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم أحوالاً لاتوافق هذه المعقولات ، ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله ﷺ : « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا »[2] . فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له عند ذلك :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[3] .

---

(١) لقد شك الإمام الغزالي في جميع المعلومات التي سبق له أن حصَّلها عن طريق الحواس أو عن طريق العقل ، ثم بدأ بأوليات يقينية تستمد يقينها من إدراكه المباشر ، وهذه « الأوليات » هي حقائق واضحة بذاتها يستحيل أن تكون موضع شك لأن نفيها إنما يأتي إثباتاً لها فإذن ليس من ثبوتها بد . إن هذا الطريق الذي سلكه الإمام الغزالي ثم رسمه لنا إنه طريق الشك المنهجي الذي سلكه من بعده « ديكارت » الفيلسوف الفرنسي المشهور .

وقد أثبت مؤخراً المؤرخ التونسي الأستاذ « عثمان الكعاك » في ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر عام ١٩٧٦ أنه قد عثر على ترجمة لاتينية من القرن الرابع عشر لكتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي في مكتبة ديكارت بدار الكتب الوطنية الفرنسية في باريس ، وأنه استحضر بالفعل صورة من هذه الترجمة ، ووجد أن ديكارت قد كتب بخط يده تعليقاً على الأجزاء الخاصة بالشك يقول فيه « يضاف هذا إلى منهاجنا » راجع ص٣٣٣ من المجلد الأول من « محاضرات ومناقشات في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي » عنابة الجزائر ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

(٢) حديث لاأصل له ، وقد أورده الغزالي في « الإحياء » (٢٣/٤) وقال الحافظ العراقي : لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب . وقال العجلوني في « كشف الخفاء » (٤١٤/٢) هو من قول علي رضي الله عنه ، لكن عزاه الشعراني في « الطبقات » لسهل التستري .

(٣) سورة (ق) الآية [٢٢] .

فلما خطر لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية[1] . فإذا لم تكن مسلَّمة لم يمكن تركيب الدليل . فأعضل الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لابحكم النطق والمقال . حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والإعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيَّق رحمة الله تعالى الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ ، عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى : (فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ)[2] قال : « هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ الله تَعَالَى فِي الْقَلْبِ » .

فقيل : « وما علامته » ؟

قال : « التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، وَالإِنَابَة إِلَى دَارِ الخُلُودِ »[3] .

وهو الذي قال ﷺ فيه :

« إِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ »[4] فمن

---

(١) العلوم الأولية : الحقائق الواضحة بذاتها غير المحتاجة إلى برهان لبيان صدقها .

(٢) الأنعام الآية [١٢٥] .

(٣) ذكر الحديث ابن كثير في « تفسيره » (١٧٤/٢) من رواية عبد الرزاق وابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ، عن أبي جعفر المدائني الهاشمي مرسلاً ، وأبو جعفر الهاشمي المدائني واسمه عبد الله بن مسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب ليس بثقة ، وذكره ابن كثير أيضاً من رواية ابن أبي حاتم ، من حديث عبد الله بن مسعود منقطعاً ومتصلاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ، ثم قال : فهذه طرق للحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً والله أعلم ، وانظر « الدر المنثور » (٤٤/٣ و٤٥) .

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٧٦/٢ و١٩٧) والترمذي رقم (٢٦٤٤) في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه =

ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور يتبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال ﷺ :

« إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا »[1] والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي إلى طلب مالا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب نفر واختفى ، ومن طلب مالا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

= الأمة ، وابن حبان رقم (١٨١٢) . موارد الظمآن ، والحاكم في مستدركه (١/٣٠) وصححه ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن . ولفظه « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » .

(١) ذكر هذا الحديث الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/٢٣١) من رواية الطبراني في الأوسط والكبير ، عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه وقال في آخره : وفيه من لم أعرفهم ، ومن عرفتهم وثقوا ، وذكره أيضاً في « المجمع » (١٠/٢٣١) من رواية الطبراني عن أنس رضي الله عنه ، وفي إسناده ضعف أيضاً ، ولكنه حسن بهذا الشاهد .

وورد حديث آخر بسند حسن « افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم » .

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ — المتكلمون : وهم يدَّعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ — الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالإقتباس من الإمام المعصوم .

٣ — الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ — الصوفية : وهم يدَّعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذَّ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لامطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ من شرط المقلد أن لايعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب لايرأب[1] وشعث[2] لايلم بالتلفيق[3] والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة . فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق . مبتدئاً بعلم الكلام . ومثنياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعلم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

---

(١) شعب لايرأب : الشَّعْبُ : انفراج بين الجبلين ، يرأب : يصلح ، وهو صدع لايصلح .

(٢) شعث : الشَعَثَ : ما تفرق من الأمور وشَعِثَ القوم : تفرقوا .

(٣) التلفيق : لفَّق بين الثوبين : لأم بينهما بالخياطة . ولفَّق الحديث : زخرفه وموَّهه بالباطل . فهو ملفَّق .

علم الكلام ـ مقصوده وحاصله(١)

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصَّلته ، وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنَّفت فيه ما أردت أن أصنِّف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي ، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله تعالى ، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرَّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة(٢) ، على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله ، فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب(٣) عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على

---

(١) نشأ علم الكلام بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموع ظنون وتخمينات لاتقوم على أساس علمي ، وكان المعتزلة أسرع الناس افتتاناً بمنطق اليونان وحاولوا إخضاع الدين للمنطق اليوناني فتأولوا القرآن على آرائهم ، وكان المسلمون في غنى عن ذلك بما في الكتاب والسنة من علم محكم ، وبينة واضحة ، وقد استطاع أن يقهرهم ويهزمهم في معترك العلم والعقل رجل منهم عاش معهم أربعين سنة هو الإمام أبو الحسن الأشعري ثم أبو منصور الماتريدي وقد غيروا اتجاه الطبقة المثقفة وهؤلاء هم الذين عناهم الإمام الغزالي في بحثه هذا .

(٢) أهل البدع المحدثة : يقصد الإمام الغزالي « المعتزلة » وهم أهل البدع المحدثة ومنها دعوة (خلق القرآن) ، (والمنزلة بين المنزلتين) فإنهما من محدثات الأمور التي قال عنها رسول الله ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور » لأنه ابتداع في الدين لم تكن على أيام رسول الله ﷺ ولا عهد الصحابة رضوان الله عليهم .

(٣) الذب : الدفاع .

مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها ، إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار وكان أكثر خوضهم في استخراج تناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلّماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لايسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً ، فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً .

نعم لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة ، تشوّق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور(1) وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض(2) وأحكامها . ولكن لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق . ولا أُبعِدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات ، والغرض الآن : حكاية حالي ، لا الإنكار على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ؛ وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر .

---

(1) كالباقلاني والجويني .

(2) الجوهر : في الفلسفة ما قام بنفسه ، والعَرَض : ما يقوم بغيره . ولقد تناول هذا في « تهافت الفلاسفة » فقال : قد يختلفون على لفظ مجرد وطريقة استعماله كاختلافهم على الاسم « جوهر » حين يشيرون به إلى الله ، فيقول بعضهم عن « الجوهر » إنه « الموجود لا في الموضوع » أي أنه القائم بنفسه الذي لايحتاج إلى مقوم يستند إليه ، ويرد عليهم آخرون بقولهم : إن الجوهر إنما يتميز في مكانه فيقول الغزالي : إننا إذا اتفقنا على معنى اللفظ ، بأنه هو قيام الموجود بنفسه دون حاجة منه إلى سواه ، فماذا يهم إذا أطلقنا على مثل هذا الموجود اسم « جوهر » أم لم نطلقه ؟ إنما يكون من قبيل البحث اللغوي الذي لاضير علينا منه » .

الفلسفة

أحاصيلها ، ما يذم منها وما لايذم ، وما يكفر فيه قائله ، وما لايكفر ، وما يبدَّع فيه وما لا يبدَّع ، وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ، وما مزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق – وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم .

ثم إني ابتدأت – بعد الفراغ من علم الكلام – بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً : أنه لايقف على فساد نوع من العلوم ، من لايقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته فيطَّلع على ما لم يطَّلع عليه صاحب العلم ، من غوره[1] وغائله ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدَّعيه من فساده حقاً . ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك ، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم – حيث اشتغلوا بالرد عليهم – إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لايظن الإغترار بها بعاقل عامي ، فضلاً عمن يدَّعي دقائق العلم ، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية[2] .

فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من

---

(١) غوره : عمقه ، قعره .

(٢) رمي في عماية : الرمي في ظلمة دون معرفة .

الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطّلعت على ما فيه من خداع ، وتلبيس وتحقيق وتخييل ، اطلاعاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم ، فإني رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً وهم – على كثرة أصنافهم – يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم ، في البعد عن الحق والقرب منه .

أصناف الفلسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم

اعلم أنهم – على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم – ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : الدهريون ، والطبيعيون ، والإلهيون .

الصنف الأول : الدهريون وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا : أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة .

والصنف الثاني : الطبيعيون وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات . فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، مما اضطروا معه إلى الإعتراف بفاطر حكيم ، مطّلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح ، وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لاسيما بنية الإنسان .! إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم – لاعتدال المزاج – تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا إنهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ،

لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

والصنف الثالث : الإلٰهيون وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط »[1] وهو أستاذ « أفلاطون »[2] و« أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس »[3] و« أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذّب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهم بجملتهم ، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)[4] بتقاتلهم . ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون » و« سقراط » ومن كان قبلهم من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى من رذاذ كفرهم ، وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من

---

(١) سقراط : فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ومؤسس فلسفة الأخلاق ، حكم عليه بأن يشرب السم بعد محاكمة جرت له بتهمة خروجه على قوانين الدولة وتهكمه بوثنية اليونان وآلهتها وقال للقضاة آنذاك : إن هذا الحكم يقلقكم أكثر مما يقلقني ، ولما حاول تلامذته اختطافه رفض وقال لهم : أتريدون سقراط أم فكر سقراط ؟ قالوا : نريد فكر سقراط ، فقال : إذا هربت ماتت أفكاري وإذا بقيت عاشت أفكاري .

(٢) أفلاطون : فيلسوف يوناني ولد سنة ٤٢٩ وتوفي ٣٤٧ ق . م وهو تلميذ سقراط احتل مكانه بعد مصرعه وهو صاحب نظرية (المُثُل) المعروفة وقد ترجم من كتبه « محاورات » و« طيماوس » و« الجمهورية » وفي الأخير يبين أن الطبقة الحاكمة يجب أن يكونوا فلاسفة .

(٣) أرسطاطاليس : فيلسوف يوناني (٣٨٤ — ٣٢٢) ق . م وهو تلميذ أفلاطون ولكنه استطاع أن يطغى على أساتذته ، واعتبره الناس أعظم شخصية فلسفية ويلقب بـ « المعلم الأول » وتلقب مدرسته بمدرسة « المشائين » له كتاب « الأخلاق » و« الكون والفساد » و« السياسة » و« الطبيعة » وقد ترجمت كتبه إلى العربية .

(٤) الأحزاب الآية [٢٥] .

المتفلسفة الإسلاميين . « كابن سينا »[1] و« الفارابي »[2] وأمثالهما . على أنه لم يقم بنقل علم « أرسطاطاليس » أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لايفهم ، وما لايُفْهَمُ كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة « أرسطاطاليس » ، بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ — قسم يجب التكفير به .

٢ — وقسم يجب التبديع به .

٣ — وقسم لايجب إنكاره أصلاً ، فلنفصله .

---

(١) ابن سينا : هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ولد بقرية من قرى بخارى سنة (٣٧٠ هـ — ٤٢٨) اشتغل بالفلسفة حتى أتمها ، ثم تفرغ لدراسة الطب حتى نبغ فيه وفاق أطباء عصره وألف فيه كتابه العظيم « القانون في الطب » وهو لم يجاوز ست عشرة سنة ، ثم رجع إلى دراسة المنطق والفلسفة ودرس فلسفة أرسطو ولما وصل إلى كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو لم يفهم منه شيئاً ، حتى وقع في يده كتاب « أغراض ما بعد الطبيعة » لأبي نصر الفارابي ، ووصل به إلى فهم ما أغلق عليه : وكان سبباً في دراسته لكتب الفارابي وتأثره بفلسفته أكثر من غيره . وله في الفلسفة « الشفاء » و« الإشارات والتنبيهات » وغيرها .

(٢) الفارابي : هو أبو نصر محمد بن محمد الفارابي ، ولد بفاراب في أطراف فارس مما يلي بلاد الترك (٢٦٠ هـ — ٣٣٩ هـ) نشأ بها وتعلم التركية والفارسية والعربية واليونانية والسريانية ، ثم انتقل إلى بغداد فدرس الفلسفة . وكان يمتاز على غيره بحسن العبارة ، ووضوح الفكرة ، وتناول كتب أرسطو بالدرس ، حتى نبغ في استخراج معانيها والوقوف على أغراضها ، ويقال : إنه قرأ كتاب « النفس » لأرسطو مائة مرة ، ثم رحل في آخر حياته إلى حلب قاصداً سيف الدولة الحمداني ، وكان يؤثر عيشة التقشف والزهد ، ولشدة ولعه بأرسطو لقب بـ « المعلم الثاني » كما كان أرسطو يلقب « المعلم الأول » وكان موسيقياً بارعاً ، وله كتب كثيرة أهمها كتابه « المدينة الفاضلة » و« الجمع بين الحكيمين » أي أفلاطون وأرسطو .

أقسام علومهم

اعلم : أن علومهم – بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه – ستة أقسام رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلَهية ، وسياسية ، وخلقية .

أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق منه شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لاسبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان : الأولى : من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسنة فيكفر بالتقليد المحض ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجورهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه[1] .

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة

---

(١) كأنه يصور – وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ورد فعلها في كثير من ضعاف العقول والمتكايسين في عصره – عقلية النشيء الجديد ، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين ، الذين خضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبيعية والاختراعات ، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسخ خلقي ، فظنوا أنه الطريق الأقوم ، وقلدوهم فيه تقليد القرود .

البراعة والسبق ، وإن كان الحمق والجهل يلزمهم في غيرها . فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلَهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جرَّبه وخاض فيه . فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحد بالتقليد ، ولم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، والشهوة الباطلة ، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها . فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم سرى إليه شرُّهم وشؤمهم ، فقلَّ من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم . فأنكر جميع علومهم وادَّعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً ، ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية . وقوله ﷺ :

« إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَإِلَى الصَّلَاةِ »(1) .

وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص ، أما قوله عليه السلام :

---

(1) رواه البخاري رقم (١٠٠٩) في الكسوف ، ورقم (٣٠٣١) في بدء الخلق . ومسلم رقم (٩٠١)/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

« لكِنَّ اللهَ إِذَا تَجَلَّى لِشَيءٍ خَضَعَ لَهُ »[1] فليس توجد هذه الزيادة في الصحيح أصلاً . فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً ، بل هي النظر في طرق الأدلة[2] والمقاييس[3] ، وشروط مقدمات البرهان[4] ، وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه . وأن العلم إما تصور[5] وسبيل معرفته الحد[6] ، وإما تصديق[7] وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الإستقصاء في التعريفات والتشعيبات ، ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل « أ » « ب » لزم أن بعض « ب » « أ » أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية[8] . وأي نعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الإعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم أنه

(١) هو جزء من حديث طويل ، رواه النسائي (١٤١/٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وهو حديث مضطرب الإسناد والمتن ، وانظر ما قاله العلماء في هذا : لجزء (النسائي) (١٤١/٣ — ١٤٤) .

(٢) الدَّليل : هو الذي يلزم لمعرفته معرفة شيء آخر .

(٣) القياس : قول مركب من قضيتين أو أكثر متى سُلِّم لزم عنه لذاته قول آخر . مثل كل إنسان فان وسقراط إنسان فإن هذا يستلزم القول بأن سقراط فان .

(٤) البرهان : قياس مؤلف من مقدمات يقينية . وعند الرياضيين : ما يثبت قضية من مقدمات مسلَّم بها (ج) براهين .

(٥) التصور : عند المناطقة إدراك المفرد : أي معنى الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات .

(٦) الحد : المانع والحاجز بين الشيئين ، وفي اصطلاح المناطقة : القول الدالُّ على ماهية الشيء .

(٧) التصديق : إدراك الحكم أو النسبة بين طرفي القضية .

(٨) هذه القضايا المعروفة في منطق أرسطو فقد قسم القضايا إلى قسمين قضايا موجبة وقضايا سالبة وقسّم كل منهما بدوره إلى قسمين موجبة كلية وموجبة جزئية وسالبة كلية وسالبة جزئية .

موقوف على مثل هذا الإنكار ، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الإنتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل ، وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل بالكفر قبل الإنتهاء إلى العلوم الإلَهية . فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه .

٣ ــ وأما علم الطبيعيات : فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء والهواء والتراب والنار ، وعن الأجسام المركبة ، كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها وامتزاجها ، وكذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها ، وأصل جملتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لاتعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لافعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ ــ وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب مذهب « أرسطاطاليس » فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا ، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب « التهافت » أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم :

١ — إن الأجساد لاتحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لاجسمانية[1] .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية : فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

٢ — ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات » ، فهو أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه :

﴿ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾[2] .

٣ — ومن ذلك قولهم : بقدم العالم وأزليته ، ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل . وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات ، لابعلم زائد على الذات وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك[3] .

---

(١) لقد بحث ذلك علماء العقيدة والكلام وأطالوا البحث وقالوا : إن الحشر يكون عن طريق تجميع الذرات من التفرق والشتات ويدل على هذا المعنى أيضاً قوله جل جلاله : ﴿ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى ، قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامة : ٣ — ٤] ويحشر الإنسان بعد تجميع أجزائه الأصلية التي بها استقبل الحياة ، والمثوبات والعقوبات جسمانية لأن الجنة والنار شيئان ماديان وليستا مجرد وهم يطوف بالنفس أو الروح وحدهما . والآيات القرآنية تدل على أن نعيم الجنة حسي مادي يلقاه الجسد والروح معاً وعذاب جهنم حسي مادي أيضاً يلقاه الجسد والروح معاً . انظر كتاب « كبرى اليقينيات الكونية » بحث (يوم القيامة وأحداثه) وتفصيل ذلك للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . ص٣٣٨ — ٣٦٣ .

(٢) سورة سبأ الآية [٣] .

(٣) المعتزلة : فرقة نشأت في العصر العباسي أسسها « واصل بن عطاء » ، وسموا بالمعتزلة لأن رئيسهم اعتزل حلقة « الحسن البصري » ، وهي فئة افتتنت بمنطق اليونان ، وأسرفوا في تمجيد العقل ، وحاولوا إخضاع الدين لمنطق اليونان ، وتأولوا القرآن على آرائهم فجاءت مباحثهم فجة ، والخطأ الكبير الذي وقعوا فيه وبددوا طاقات العلماء هو بحثهم في العقائد بمنهج الفلسفة لأن منهج الفلسفة مغاير لمنهج العقيدة لأن طبيعة الفلسفة الإغريقية وثنية فقد نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير ، واستمدت جذورها من هذه الوثنية . فأحدثوا في الدين ما ليس منه « كخلق القرآن » و« المنزلة بين المنزلتين » وغيرهما فإنهما =

وقد ذكرنا في كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين به فساد رأي من يتسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ — وأما السياسيات : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء عليهم السلام .

٦ — وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق الناس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرّحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم . ولقد كان في عصرهم بل في كل عصر جماعة من المتألهين لايخلي الله سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض كما ورد في الخبر حيث قال ﷺ : « بِهِمْ تُمْطَرُونَ ، وَبِهِمْ تُرْزَقُونَ »[1] ومنهم كان أصحاب الكهف وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن ، فتولّد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان :

آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد .

١ — أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة : إذ ظنت طائفة من الضعفاء

= من البدع التي قال فيها رسول الله ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور » .

(١) أما الأوتاد فلم يصح فيهم شيء عن النبي ﷺ ، وأما الأبدال فقد ورد فيهم بعض الأحاديث وفيها أنه بهم يستسقى الغيث ، وبهم يمطرون ، وبهم يرزقون ، وبهم ينصرون ، ولكن ليس فيها حديث صحيح ، ولكن بمجموع هذه الأحاديث يدل على أن للحديث أصلاً ، ولذلك يقال : فلان من الأبدال أي كلما مات من هؤلاء أبدل الله مكانه ، وانظر « مجمع الزوائد » (٦٢/١٠ و٦٣) .

أن ذلك الكلام إذا كان مدوَّناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يهجر ولا يذكر بل ينكر على كل من يذكره إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذي يسمع من النصراني قوله : « لاإله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصارى » ، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لاالرجال بالحق . والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، حيث قال : « لاتعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله » ، والعارف العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول : فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال ، عالماً بأن معدِن الذهب الرغام[1] . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلَّاب[2] وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج . مهما كان واثقاً ببصيرته ، ويمنع — من ساحل البحر — الأخرقُ ، دون السبَّاح الحاذق ، ويصد عن مس الحيَّة الصبي دون المعزِّم[3] البارع . ولعمري ! لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل ، وتمام الآلة في تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلال وجب حسم الباب

---

(١) قال المتنبي (ديوانه ٤/١٩١) :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدِن الذهب الرغام

والمعدِن : مكان كل شيء وأصله ومبدؤه ، والرغام التراب .

(٢) القلَّاب : هو الذي يقلب الحقائق وهنا مزيف النقود .

(٣) المعزِّم : الرَّاقي ، عزَّم الرَّاقي : قرأ العزائم .

في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن ، إذ لايسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها أصلاً ، وإن سلموا عن هذه الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض – على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين – طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل ، مع أن بعضها من مولّدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية ، وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه ، مؤيداً بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ويترك ؟! فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن وأخبار الرسول ﷺ وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية لأن صاحب « إخوان الصفا »[1] أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه كتبهم . وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر[2] .

فلا يعاف العسل ، وإن وجده في محجمة الحجّام ، ويتحقق أن المحجمة

---

(١) إخوان الصفا : جمعية سرية قامت في العراق في القرن الرابع الهجري وكان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الحديثة ، وكانوا يريدون أن يضعوا للناس مذهباً جديداً يجمع بين الفلسفة اليونانية وبين العبادات الشرعية الإسلامية وخرجوا على الناس بخليط فيه حكمة اليونان وتنظيم الأديان وصنفوا في ذلك خمسين رسالة تشمل جميع أجزاء الفلسفة سموها « رسائل إخوان الصفا » وكتموا أسماءهم وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة . ليجعلوها قنطرة إلى الباطنية انظر « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي . و« إخوان الصفا » لعمر الدسوقي .

(٢) الغمر : الجاهل الذي لم يجرّب الأمور .

لاتغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع عنه مبنيَّة على جهل عامي منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه لايكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار ، وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فإذا نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وإن كان باطلاً ، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقاً ، فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! هذه آفة الرد .

٢ ــ والآفة الثانية آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم « كإخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها ، وحسَّن اعتقاده فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظنه مما رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل . ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر . وكما يجب صون من لايحسن السباحة على مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيَّات ، يجب صون الأسماع عن مختلط الكلمات[1] ، وكما يجب على المعزّم أن لايمس الحيَّة بين يدي ولده الطفل ، إذا علم أنه سيقتدي به ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذّره منه ، بأن يحذر هو في نفسه ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله ، وكما أن المعزّم الحاذق إذا أخذ الحيَّة وميَّز بين الترياق والسم ، واستخرج منها الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على

---

(١) ولذلك غضب رسول الله ﷺ عندما رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة ، وقوله : « ... وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » (رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر) .

المحتاج إليه . وكذا الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده في كيس القلّاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، وطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيّد المرضي على من يحتاج إليه ، فكذلك العالم . وكما أن المحتاج إلى الترياق ، إذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحيَّة التي هي مركز السم وجب تعريفه ، والفقير المضطر إلى المال ، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلّاب ، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض ، هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه ، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيّد لايجعل الجيّد زيفاً ، كما لايجعل الزيف جيّداً ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل ، لايجعل الحق باطلاً ، كما لايجعل الباطل حقاً ، فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

مذهب التعلم وغائلته

ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهُّمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات ، وكان قد نبغت[1] نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، فعنّ[2] لي أن أبحث في مقالاتهم ، لأطّلع على ما في كنانتهم[3] . ثم اتفق أن ورد عليَّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم[4] . فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثاً من خارج ، ضميمة[5] للباعث من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لاعلى المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتي في تقرير حجتهم ، فقال : « هذا سعي لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها » . وهذا الإنكار من وجه حق ، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمهما الله تصنيفه في الرد على المعتزلة ، فقال الحارث : « الرد على

---

(١) نبغت : ظهرت .

(٢) فعنَّ لي : خطر لي .

(٣) كنانتهم : جعبتهم .

(٤) هو كتاب « المستظهري » .

(٥) ضميمة : دعماً وانضماماً إلى الشي .

البدعة فرض » فقال أحمد : « نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها ، فيم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه » ؟

وما ذكره أحمد بن حنبل حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر و لم تشتهر فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . نعم ، ينبغي أن لايتكلف لهم شبهة لم يتكلفوها ، و لم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلي ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم ، ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسي أن يظن فيَّ الغفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بي أني — وإن سمعتها — لم أفهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود ، أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لاحاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة — مع ضعفها — إلى هذه الدرجة ، ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم في دعواهم : « الحاجة إلى التعليم والمعلم » ، وفي دعواهم أنه : « لايصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين ، و لم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الإعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لابد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ فإذا قالوا : « هو ميِّت »

فنقول : « ومعلمكم غائب » فإذا قالوا : « معلمنا قد علَّم الدعاة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل » فنقول : « ومعلمنا قد علَّم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم » إذ قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[1] ، وبعد كمال التعليم لايضرُّ موت المعلم كما لايضر غيبته[2] .

فبقي قولهم : « كيف تحكمون في ما لم تسمعوه ؟ أبالنص و لم تسمعوه ، أم بالإجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف » ؟

فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن[3] . أن نحكم بالنص عند وجود النص ، وبالإجتهاد عند عدمه . بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصي البلاد إذ لا يمكنه أن يحكم بالنص ، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وأن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا

---

(١) المائدة الآية [٤] .

(٢) نعم غاب شخص رسول الله ﷺ ولكنه تركنا على محجة بيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك ، لقد ترك القرآن بين أيدينا وحديثه ﷺ — وهديه العملي ، وسيرته الكريمة كل ذلك بين أيدينا فلن نحتاج إلى من يرشدنا ويحل ما أشكل علينا لأن الحلول بين أيدينا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين .

(٣) يشير إلى الحوار الذي دار بين رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن ، فقد سأله رسول الله ﷺ : « بم تقضي يامعاذ ؟ فقال : بما في كتاب الله ، قال : فإن لم تجد قال : بما في سنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم تجد قال أجتهد رأيي ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله » .

رواه أبو داود رقم (٣٥٩٢ و٣٥٩٣) في الأقضية والترمذي رقم (١٣٢٧ و١٣٢٨) في الأحكام وقال الترمذي : ليس إسناده عندي بمتصل . وقد ضعّفه المحققون من المحدثين وصححه الفقهاء و علماء الأصول .

أن يصلي بالإجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، فيفوت وقت الصلاة . فإذن ، جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إنَّ المُخْطِيءَ فِي الإِجْتِهَادِ لَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ وَلِلْمُصِيبِ أَجْرَانِ »(١) فكذلك في جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غني باطناً بإخفائه ماله ، فلا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ ، لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه . فإن قال : « ظن مخالفهِ كظنه » فأقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وإن خالفه غيره » فإن قال : « فالمقلد يتبع أبا حنيفة والشافعي رحمهما الله أم غيرهما » ؟ فأقول : « فالمقلد في القبلة عند الإشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، فكيف يصنع ؟ فسيقول : « له مع نفسه إجتهاد في معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الإجتهاد ، فكذلك في المذاهب » فرد الخلقَ إلى الإجتهاد – ضرورة – الأنبياءُ والأئمة مع العلم بأنهم قد يخطئون(٢) ، بل قال رسول الله ﷺ :

« أَنَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ »(٣) . أي أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ : إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .
رواه البخاري (١٣/٢٦٨) في الاعتصام : باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ رواه مسلم رقم (١٧١٦) في الأقضية باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٢) الأنبياء معصومون لأنهم لايقرون على الخطأ فالوحي يصحح الخطأ إن وقع ، ولذلك لايجوز أن نقول إن الأنبياء يخطئون . وهذا ما قاله الغزالي ص٥٣ .

(٣) لم أعثر في كتب الحديث على هذا الحديث وإنما الذي ثبت في « الصحيحين » أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .
رواه البخاري (٥/٢١٢) في الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين . ورواه مسلم رقم (١٧١٣) في الأقضية : باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة .

للأنبياء في مثل هذه المجتهدات فكيف يطمع في ذلك ؟. ولهم ها هنا سؤالان : أحدهما قولهم : هذا وإن صح في المجتهدات فلا يصح في قواعد العقائد ، إذ المخطىء فيه غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟ فأقول : « قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالقسطاس المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهي خمسة ذكرتها في كتاب « القسطاس المستقيم » فإن قال : « خصومك يخالفونك في ذلك الميزان » فأقول : ولا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، إذ لايخالف فيه أهل التعليم ، لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق وغير مخالف له ، ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات » . فإن قال : « فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لاترفع الخلاف بين الخلق ؟ » ، فأقول : « لو أصغوا إليَّ لرفعت الخلاف بينهم ، وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله لتعلم أنه حق وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ولا يصغون إليه بأجمعهم ! بل قد أصغى إلي طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم .

وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم لم يرفع إلى الآن ؟ وَلِمَ لم يرفع علي رضي الله عنه وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعي أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟ ولأي يوم أجَّله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع الضرر لاينتهي إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال . وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف من الخلاف ما لم يكن بمثله عهد . فإن قال : « ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والإختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا

فرق بينك وبينهم » وهذا هو سؤالهم الثاني ، فأقول : وهذا أولاً ينقلب عليك ، فإنك إذاً دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامي منصوص عليه ، فمن يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلّم لك النص ، فإن كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول : الدليل على صدقي أني أحيي أباك ، فأحياه ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا أعلم صدقه؟ و لم يعلم كافة الخلق صدق عيسى عليه السلام بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لايدفع إلا بدقيق النظر العقلي ، والنظر العقلي لايوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لايضل عباده . وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ و لم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ! فيرجع إلى الأدلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة وأوضح منها . وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه . وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ، وما لايسبق سريعاً إلى الأفهام ، فلا يصلح للإفحام . فإن قال قائل : « فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟» فأقول : « نعم ! جوابه أن المتحير لو قال : أنا متحير و لم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض » ، يقول : « أنا مريض ولا يعيّن مرضه ويطلب علاجه » فيقال له : « ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معيّن . من صداع أو إسهال أو غيرهما » فكذلك المتحير ينبغي أن يعيّن ما هو متحير فيه ، فإن عيّن المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لايفهمها أحد إلا ويعترف بأنه

الميزان الحق ، ويفهم منه أيضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم علم الحساب ، نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه . وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهري » أولاً ، وفي كتاب « حجة الحق » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عرض عليَّ ببغداد ، وفي كتاب « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً ، وهو جواب كلام عرض عليَّ بهمدان ، وفي كتاب « الدرجة المرقوم » بالجداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض عليَّ بطوس ، وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الإستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به . بل المقصود أن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جربناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلّها ! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا : « إنه لا بد من السفر إليه » والعجب أنهم ضيَّعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمخ[1] بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقي متضمخاً بالخبائث . ومنهم من ادَّعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة « فيثاغورس » وهو رجل من قدماء الأوائل ومذهبه أرك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه « أرسطاطاليس » ، بل استرك كلامه واسترذله ، وهو المحكي في كتاب « إخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

---

(١) متضمخاً : ملطخاً بالطيب أو غيره مكثراً منه .

فالعجب ممن يتعب طول العمر في تحصيل العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث[1] ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضاً جرَّبناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : « هات علمه وأفدنا من تعليمه !» وقف وقال : « الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط » . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه . فهذه حقيقة حالهم فأخبرهم تقلهم[2] فلما جرَّبناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

(١) المستغث : الذي لاغناء فيه ولا طائل تحته .

(٢) تقلهم : تبغضهم ، خبر الشيء : بلاه وامتحنه وعرف خبره على حقيقته وسبر الشيء : بمعنى خبره .

طرق الصوفية[1]

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليَّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي[2] رحمه الله ، وكتب « الحارث المحاسبي »[3] ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد »[4] و« الشبلي »[5]

(١) نشأت الطرق الصوفية كمدارس تربوية تهدف إلى تزكية النفس وترقيتها وتصعيدها والإرتفاع بها من دنس الأخلاق المذمومة والتخلص من شرك النفس الأمارة بالسوء والوصول إلى النفس الراضية المطمئنة . فيدخلون النور وعند ذلك لا بد للفيوضات أن تتنزل عليهم ، وتفيض عليهم من أسرار الحق فهذه ثمرة من ثمرات التصوف .

(٢) أبو طالب المكي : الإمام الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي ، المكي المنشأ ، العجمي الأصل ، كان مجتهداً في العبادة وقال الخطيب : قال لي أبو طاهر العلاف : وعظ أبو طالب ببغداد ، وخلّط في كلامه وحفظ عنه أنه قال : ليس على المخلوقين أضر من الخالق ، فبدّعوه وهجروه ، توفي في جمادى الآخرة سنة (٣٨٦ هـ) .

(٣) الحارث المحاسبي : هو أبو عبد الله بن أسد المحاسبي . عديم النظير في زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالاً ، بصري الأصل ، مات ببغداد سنة (٢٤٣ هـ) وقد دخل في شيء يسير من الكلام ، فنقم عليه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما وهجره فاختفى مدة وكان عالماً بالفقه والحديث والأصول وعرف مذاهب النساك .

(٤) الجنيد : الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي القواريري هو شيخ الصوفية ، ولد سنة (نيف وعشرين ومئتين) وتفقه على أبي ثور ، وسمع من السري السقطي وصحبه ، ومن الحسن بن عرفة ، وصحب أيضاً الحارث المحاسبي ، وأبا حمزة البغدادي وأتقن العلوم ، ثم أقبل على شأنه ، وتأله وتعبد ونطق بالحكمة وقال أحمد بن عطاء : كان الجنيد يفتي في حلقة أبي ثور . وروي عنه أنه قال : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ الكتاب ، ويكتب الحديث ، ولم يتفقه ، لايقتدى به توفي سنة (٢٩٧ هـ) .

(٥) الشبلي : شيخ الطائفة ، أبو بكر ، الشبلي البغدادي . قيل : اسمه دلف بن جحدر وقيل : جعفر بن يونس ، =

ومن أبي يزيد البسطامي (١) قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان ؟ وبين أن تعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من من المعدة [illegible] ، وبين أن تكون سكران ! بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها ، وهو فاقد الصحة . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن تكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا !

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق (٢) والسلوك (٣) . وكان قد حصل معي — من العلوم التي مارستها

وهو [illegible] جعفر بن [illegible] أصله من الشبلية ، ومولده بسامراء . وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة ، [illegible] فتاب [illegible] صحب الجنيد وغيره . وصار من شأنه ما صار . وكان فقيهاً [illegible] مذهب مالك . [illegible] حديث عن طائفة وقال الشعر . وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن . لكنه كان [illegible] . فيقول أصحابه يعتذر عنه . سئل : ما علامة العارف ؟ قال : صدره مشروح ، وقلبه مجروح ، وجسمه مطروح . توفي ببغداد سنة (٣٣٤ هـ) عن نيف وثمانين سنة .

(١) أبو يزيد البسطامي : سلطان العارفين ، أبو يزيد ، طيفور بن عيسى البسطامي ، أحد الزهاد ، يروى عنه أنه قال : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يطير ، فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند [illegible] وحفظ حدوده [illegible] وقال : لو صفا لي تهليلة ما باليت بعدها . وذكر أنه قال بوحدة [illegible]

[illegible]

والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني(١) بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي ، لابدليل معين مجرد ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لاتدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأني قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الإختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلّ العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى . لاتصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فإن

---

(١) اليقين : إذا استولى الاعتقاد والعلم على القلب ولم يكن معه معارض أثر في القلب معرفة فسميت هذه المعرفة يقيناً . وقيل : اليقين : هو المشاهدة . وقيل : [illegible] القلوب نسب إلى اليقين .

لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة » .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الإختيار إلى الإضطرار ، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهمِّ الملمِّ » . ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي « يجيب المضطر إذا دعاه » وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطَّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب ديني ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الإستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من

جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة كان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والإنكباب علي ، وإعراضي عنهم ، وعن الإلتفات إلى قولهم ، فيقولون : « هذا أمر سماوي ، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم » . ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين . فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه . ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين لاشغل لي إلا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصّلته من كتب الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي ، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي . ثم تحرَّكت فيَّ داعية فريضة الحج ، والإستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، فسرت إلى الحجاز . ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه . فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لايصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة . لكني مع ذلك لاأقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به . إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم

أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة ، فماذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها — وهي أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء[1] بالكلية في الله ؟!

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الإختيار والكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه . ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات[2] ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لايمكنه الاحتراز عنه .

---

(١) الفناء : هو أن يفني عن الحظوظ ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ، فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به ، والحق يتولى تصريفه ، فيصرفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عليه ، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيل ، وهو العصمة وذلك معنى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) الحديث . انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٢٣ .

(٢) المشاهدة والمكاشفة والبصيرة والمعاينة : أسماء مترادفة على معنى واحد ، وإنما تحصل التفرقة في كمال الوضوح لافي أصله ، فمنزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين ، والمعرفة من البصيرة منزلة قرص الشمس لنور العين فتدرك بذلك الجليات والخفيات . وهذا ما حدث لسيدنا حارثة عندما قال : كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، اتصلت رؤيته بالغيب وارتفع ما بينه وبين الغيب من الحجب .

وعلى الحملة ، ينتهي الأمر إلى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول[1] ، وطائفة الاتحاد[2] ، وطائفة الوصول[3] ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الأسنى » . بل الذي لابسته تلك الحالة لاينبغي أن يزيد على أن يقول :

---

(١) الحلول : وهو أن يقال : إن الرب حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً ، وهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ، ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لا تصير صفة المحل ، بل تبقى صفة الحال كما كان . ووجه الاستحالة فيه أمران أحدهما النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون فيه وذلك لايكون إلا بين جسمين فالبريء عن معنى الجسمية يستحيل في حقه ذلك . والثاني : النسبة التي بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى في هذا العرض فإن كل قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى . وهو غلط وقع فيه النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله .

(٢) الاتحاد : وهو أظهر بطلاناً لأن قول القائل إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات كأن نقول : زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل : إن زيداً صار عمرواً واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجوداً أو كليهما معدومين أو زيد موجوداً وعمرو معدوماً أو بالعكس . فإن كانا موجودين فلم يصر أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لايوجب الاتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا يتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض بالبعض ، وإن كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وإن كان أحدهما معدوماً والآخر موجوداً فلا اتحاد إذ لا يتحد موجود بمعدوم فالاتحاد بين الشيئين مطلقاً محال وهذا جار في الذوات المتماثلة فضلاً عن المختلفة ، فأصل الاتحاد إذاً باطل .

وهذا غلط وقع في ظن النصارى حين تصوروا اتحاد اللاهوت بالناسوت .

(٣) الوصول : هو أن يتكشف له حلية الحق ، ويصير مستغرقاً به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله تعالى وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشغولاً بكله مشاهدة وهمّاً لايلتفت في ذلك إلى نفسه ليعجز ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب الأخلاق وكل ذلك طهارة وهي البداية وأما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو .

انظر المقصد الأسنى للإمام الغزالي . ص ٧٣ وما بعد .

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ   فَظُنَّ خَيْراً وَلَاتَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ[1]

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلّا الإسم ؛ وكرامات الأولياء ، هي على التحقيق ، بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حين أقبل إلى جبل « حراء » حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » .

وهذه الحالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إن أكثر الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الإيمان فهم القوم لايشقى جليسهم . ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب « إحياء علوم الدين » . والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان .

فهذه ثلاث درجات : « يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ »[2] . ووراء هؤلاء قوم جهال ، هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب ! إنهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾[3] .

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم ، « حقيقة النبوة وخاصيتها » ولابد من التنويه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها .

(١) هذا البيت لابن المعتز انظر ديوانه ٢١٩ .

(٢) مجادلة الآية [١١]

(٣) سورة محمد الآية [١٠]

حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم : أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة ، خلق خالياً ساذجاً لاخبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لايحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : « وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »[1] وإنما خبره من العوالم بواسطة الإدراك وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حس اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان والأشكال ، وهو أوسع عالم المحسوسات . ثم ينفتح له السمع ، فيسمع الأصوات والنغمات ، ثم يخلق له الذوق . وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده . فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات ، لايوجد منه شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، وأموراً لاتوجد في الأطوار التي قبله . ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخر ،

---

(١) المدثر الآية [٣١]

العقل معزول عنها كعزل قوة التميز . من إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التميز ، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلّا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوانَ والأشكالَ ، وحكي له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ولم يقربها . وقد قرَّب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجاً من خاصيَّة النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : « إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميِّت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب » — لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته وقال : « القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لايدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لايدرك مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياسي يكذّبه الوجود والمشاهدة فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي ، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لايدركها العقل .

والشك في النبوة ، إما أن يقع في إمكانها ، أو في وجودها ووقوعها ، أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها ووجودها . ودليل وجودها وجود معارف في العالم لايتصور أن تنال بالعقل ، كعلم الطب والنجوم ، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لاتدرك إلا بإلهام إلٓهي ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة فمن الأحكام النجومية ما لايقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية فتبيَّن بهذا البرهان ، أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لايدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لأن النبوة

عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها ، إنما ذكرناها لأن معك نموذجاً منها ، وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة ، فإنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم . وذلك الأنموذج تحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين ، أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لابالتقليد عن الغير . بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة ، وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق ﷺ في قوله :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] وكيف صدق في قوله :

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث « الإحياء » : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » وضعفه . انظر « الإحياء » (٧١/١) .

« مَنْ أَعَانَ ظَالِماً سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ »[1] وكيف صدق في قوله : «مَنْ أَصْبَحَ وَهُمُومُهُ هَمٌّ وَاحِدٌ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى هُمُومَ الْدُنْيَا وَالآخِرَةِ »[2] .

فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف ، حصل لك علم ضروري ولا تتمارى فيه . فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة ، لامن قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله تعالى إضلال فإنه (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[3] .

وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإذا كان مستند إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكالات والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري لايمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذي يخبرك جماعة بخبر متواتر لايمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لايدري ولا يخرج من جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد . فهذا هو الإيمان القوي العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة ، كاف في الغرض الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

---

(١) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود . انظر كنز العمال .

(٢) رواه ابن ماجه رقم (٢٥٧ و٤١٠٦) وروايته « من جعل الهموم همّاً واحداً ، همَّ آخرته (همَّ المعاد) كفاه الله همَّ دنياه . ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا ، لم يبال الله في أيّ أوديتها هلك » . وقال في « الزوائد » : إسناده ضعيف فيه نهشل بن سعيد قيل : إنه يروي المناكير . وقيل بل الموضوعات .

(٣) فاطر الآية [٨] .

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لاأحصيها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الإيماني : أن للإنسان بدناً وقلباً ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو (إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1] وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي ، كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾[2] وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله بمتابعة الهوى ، داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي ، وأنه لاسبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطّلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة بأن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لايدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لاببضاعة العقل . وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ،

---

(١) الشعراء الآية [٨٩] .

(٢) البقرة الآية [١٠] ، والمائدة الآية [٥٥] .

فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب ، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى أن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطّلع عليها إلا نور النبوة . ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لاعن سر إلَهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية . وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه ، إن عرفنا ذلك ، وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعمى عن درك ما يدرك بعين النبوة ، أخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . فإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والعزلة ، ثم رأينا فتور الإعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ — سبب من الخائضين في علم الفلسفة .
٢ — وسبب من الخائضين في طريق التصوف .
٣ — وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .
٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإني تتبعت مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره وقلت له : « مالك تقصر فيها فإن

كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ، فإنك لاتبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لانهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لاتؤمن ، فأنت كافر ، فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع » .

فقائل يقول : « إن هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى . وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جراً إلى أمثاله . وقائل ثان : يدَّعي علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة !.

وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة ! وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : « الحق مشكل ، والطريق متعسرة والإختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي . والداعي إلى التعليم متحكم لاحجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك » ؟

وقائل خامس يقول : « لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وإن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والإسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير ، مستغن فيها عن التقليد ! » .

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلّهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي . وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لايترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ، وإذا قيل له : « إن كانت غير صحيحة فلم تصلي ؟» فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد » . وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق » فيقال : « فلم تشرب الخمر ؟» فيقول : « إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإني أقصد به تشحيذ خاطري » . حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : « إنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً »[1] فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان ، والتزام العبادات ، أن استثنى شرب الخمرة لغرض التشافي ، فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسي مليّة[2] بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء . انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم . فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض

---

(١) تشافياً : طلباً للشفاء .

(٢) ملية : ألب بالمكان لزمه وأقام به واجتمعوا فيه .

الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ! ثم قلت في نفسي : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنّى تقاومهم فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى أن حرَّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لابتحريك من خارج . فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة ، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والإستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص لنفسك عسر معاناة الخلق والله سبحانه وتعالى يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[1] ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2] ويقول عز وجل بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ .. إلى قوله إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾[3] فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على

---

(١) العنكبوت الآية [١] .

(٢) الأنعام الآية [٢٤] .

(٣) يس الآية [١١] .

رأس هذه المائة فاستحكم الرجاء . وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مئة[1] ، ويسّر الله الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربع مئة ، وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وبلغت العزلة إحدى عشر سنة وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و« قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ »[2] وأنا أعلم أني ، وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . أما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصل إلى مرادي أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأني لم أتحرك ، لكنه حرّكني ، وإني لم أعمل ، لكنه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهدني ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني

---

(١) يشير الإمام الغزالي إلى الحديث الشريف « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

رواه أبو داود رقم (٤٢٩٢) والحاكم (٥٢٢/٤) والبيهقي في معرفة السنن والآثار ص٥٢ . ويفهم من سياق الحديث أن الإمام الغزالي يعتقد أنه هو المكلف بهذه المهمة وأنه بعث على رأس المئة الخامسة وهذا ما أجمع العلماء عليه . انظر طبقات الشافعية وللسيوطي أرجوزة في ذلك .

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ورواه أحمد في « المسند » (١٦٨/٢) وروايتهما :

« إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف شاء » .

اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه ، ونعود الآن إلى ما ذكرناه من أسباب ضعف الإيمان بذكر طريق إرشادهم وإنقاذهم من مهالكهم . أما الذين ادّعوا الحيرة من أهل التعليم فعلاجهم ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما . وإنما قدّمنا هذه المقدّمة لأجل ذلك وأننا أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم . ونحن نبيّن لكل عالم بفن من العلوم — كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه — برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوّى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكم له طالع مخصوص ، يقتضي طالعه أن يكون متبوعاً ، وليس هذا من النبوة في شيء ، بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات ، فإن لم يجوّز هذا ، فقد أقمنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده . وإن جوّز هذا ، فقد أثبت أن هنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذّبها ويقضي باستحالتها . فإن وزن دانق من الأفيون سم قاتل لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته والذي يدّعي علم الطبيعة ، يزعم أنه ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصري الماء والتراب فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن أرطالاً من الماء

والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن إلى هذا الحد . فلو أخبر طبيعي بهذا و لم يجرِّبه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية وهوائية والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ، فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد ، فإن انضم إليه حاران فبأن لايوجب ذلك أولى » ويقدر هذا برهاناً ! وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلٓهيات ، مبني على هذا الجنس ! فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وربما لم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادّعى مدَّعٍ ، أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : « هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة يوضع في بلدة ، فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شيئاً من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟» لقال : « هذا محال وهو من الخرافات !» وهذه حالة النار ، ينكرها من لم ير النار إذا سمعها . وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي : « قد اضطررت أن تقول في الأفيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة . فلم لايجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لايدرك بالحكمة العقلية ، بل لايبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟» قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها . وتضعها تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج . وقد أقروا بإمكان ذلك وأوردوه في « عجائب الخواص » وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوماً مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب[1] .

(١) التأريب : القراءة من الزاوية اليمنى العلوية إلى الزاوية اليسرى التحتية أو على العكس .

٤	٩	٢	د	ط	ب
٣	٥	٧	ج	ه	ز
٨	١	٦	ح	ا	و

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ثم لايتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة وسببها اختلاف هذه الأوقات . وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والعجب أنّا لو غيّرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات ، فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، أو في الطالع أو في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديق ذلك سبب ، إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرّب كذبه مئة مرة . ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : « إذا كانت الشمس في وسط السماء ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت.قتلت في ذلك الثوب !» فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد جرّب كذبه مرات !.

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الإعتراف بأنها خواص — معرفتها معجزة لبعض الأنبياء — فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قطُّ بالكذب ! و لم لايتسع لإمكانه ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمي الجمار وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً . فإن قال : « وقد جرّبت شيئاً من النجوم

وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ، وهذا لم أجربه به ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟ وإن أقررت بإمكانه ؟ فأقول : « إنك لاتقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء فقد جرَّبوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك » .

على أني أقول : « وإن لم تجرِّبه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والإتباع قطعاً . فإنّا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرِّب المرض ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك » . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مراً كريه المذاق ، أن يتناول أو يكذِّب ؟ ويقول : « أنا لاأعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجرِّبه !» فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فبم أعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟» فأقول : وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لاتتمارى فيه » .

ومن نظر في أقوال الرسول ﷺ ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللين واللطف ، إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري ، بأن شفقته ﷺ على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده . وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه القرآن على لسانه ، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لايدركه إلا الخواص ، والأمور التي

لايدركها العقل . فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ .

فجرِّب وتأمل القرآن وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالعيان . وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

وأما السبب الرابع – وهو ضعف الإيمان بسبب سيرة العلماء فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدهما : أن نقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر ، ولحم الخنزير والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لالعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ، فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لايناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

وكم من مؤمن بالطب لايصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه ضار » أو على الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوات العلماء » ، والثاني أن يقال للعامي : « ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه . وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن . فهو وإن ترك العمل ، يدلي بالعلم . وأما أنت أيها العامي ! إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك » .

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي لايقارف معصية إلا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لايبيع الخير بما هو أدنى منه . وهذا العلم لايحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لايزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى . وأما العلم

الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لاينفك عنها البشر في الفترات وذلك لايدل على ضعف الإيمان . فالمؤمن مفتن توّاب وهو بعيد عن الإصرار والإكباب .

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لابطريقه .

نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لاينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لايعبد إلا إياه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست الكتاب

الصفحة

المقدمة ٥
كلمة شكر ٢٥
مقدمة المؤلف ٢٩
مدخل السفسطة وجحد العلوم ٣٣
أصناف الطالبين ٣٨
علم الكلام ومقصوده وحاصله ٣٩
الفلسفة ٤١
أصناف الفلاسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم ٤٣
أقسام علومهم الرياضية ٤٦
المنطقيات ٤٨
الطبيعيات ٤٩
الإلهيات ٤٩
السياسيات ٥١
الخلقية ٥١
مذهب التعليم وغائلته ٥٦
طرق الصوفية ٦٤
حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها ٧٢
سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه ٧٦
فهرست الكتاب ٨٨